غلافك عندنا
Samar Alhashem

وخز المشاعر

حاتم إبراهيم سلامة

دار مبدع
للنشر والتوزيع

©Copyright and distribution rights reserved

النسخة الأولى

من سلسلة كتب حاتم إبراهيم سلامة

١٤٤٤هـ /٢٠٢٣ م

ISBN: 979-8-21-568393-4

جميع حقوق النشر والتوزيع محفوظة ©

دار مبدع للنشر ©

هاتف : +201018243643

Emil :DarMobd2

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

وخز المشاعر

تصميم غلاف

فريق غلافك عندنا

إشراف

المهندس والكاتب مصطفى محمد عبدالعزيز نجم

نشر وتوزيع

دار مبدع للنشر والتوزيع الإلكتروني ©

جميع الحقوق محفوظة لدى الدار ©

و أي اقتباس او تقليد أو طبع أو نشر دون علم الدار أو الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية.

(دائمًا يبهرني ذلك الشخص الذي يخاف من أثر كلماته في قلوب الآخرين)

جبران خليل جبران

(ما رأيت عبادة أجل وأعظم من جبر الخواطر)

سفيان الثوري

(أحيانًا بعض الكلمات يكون ثمنها عمر كامل من الألم لغيرك، فانطق بخير أو تجمل بالسكوت)

نزار قباني

مقدمة

كان النور يكسو جبينه ويتلألأ الإشراق في وجهه، وملامحه الربانية تشع سكينة ووقارًا، تريح أفئدتنا، وتزكي جناننا، وكُنا حوله نجلس مأخوذين مبهورين، فينساب علينا حديثه العذب فيمتع نفوسنا المشتاقة، وصدورنا الملتاعة، ثم يهدر بنا حماسه، حينما يشتعل فتيل ثورته، ويخرج عن سمته الهادئ فيحمر وجهه، ويزمجر صوته، وتنفعل كلماته، وهو يضرب بقبضته القوية على منضدته، ويصيح بأعلى صوته قائلاً:

"إن الإنسان بدون دين وبدون خلق.. هو أقذر وحش على هذه الأرض"

ذلكم هو شيخنا العلامة الكبير فضيلة الشيخ (حسن أيوب) رحمه الله، وجعل الجنة مثواه.

وكم في الحياة من نماذج صدقت مقولة الشيخ الغاضب، بل كم من أناس حُسبوا على البشر، وما كانوا إلا لعنة وجحيماً عليهم، وكأنما رضعوا من لبان الوحوش المفترسة، بل كأنما قدت قلوبهم القاسية من الصخور الصماء، ولكن الحيوان لم يفعل بالحيوان، ما فعل الإنسان بأخيه الإنسان، وكذلك الحجارة حسب ما أخبر ربنا سبحانه بأن منها "مَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ"[1]

ما أسوأ حياة الناس يوم أن يكون فيهم من يفقد الإحساس والرحمة، وينزع من نفسه جذور العاطفة والمشاعر، إنها تكون بهذا أتعس حظاً من حياة الغابة، التي تمتلئ جنباتها بالرعب والخوف والحذر، ويظللها قانون غاشم ، وأخلاق

[1] -البقرة :74

وحشية ظالمة، فيفترس القوي فيها الضعيف، ويطغى الكبير فيها على الصغير.. لقد برهن الإنسان أن حياته ما هي إلا غابة كبيرة، فكم رأينا دولاً تطغى على دول، وأمماً تجور على أمم طمعاً فيها أو رغبة في إذلالها.

وهذا الاستعمار الغاشم وفي غفلة من أمة القيم، شرق وغرب في بلاد الدنيا، يسرق وينهب ويستعبد ويقتل، ولا أعرف كيف للأجيال في أمريكا والغرب، أن تستقبل حياتها بالبِشر والسعادة، وتاريخ أجدادهم يئن بمخاز لم يعرف العالم مثيلاً لها في القسوة والوحشية في حق البشرية؟!

وتستمر الحياة من حولنا، وتتصاعد النداءات بحقوق الإنسان وحريته، فهل رغم هذا توقف الكبراء عن طمعهم وظلمهم؟

إن طمعهم وحش مسعور لا يسكن سعاره إلا بدماء الضعفاء والفقراء ، وهكذا قدر للإنسانية البئيسة أن يقودها هؤلاء البغاة الذين تجردوا من المشاعر وسلخوا أنفسهم من الإحساس. ومازال يحدونا الأمل، ويتحرانا الشوق منتظرين أوبة هذا الدين العظيم، الذي ما عرفت الدنيا مثله في إقامة الحرية والعدل والمساوة، دين قام على إحساس الإنسان بأخيه الإنسان، فواسى الضعيف والمريض، ورحم المسكين والكبير، وقدم تراثاً ذاخراً مليئاً بالرحمة والإشفاق.

ما قيمة المرء حينما يتجرد من الإحساس والمشاعر فلا يشعر بمن حوله.. لا يبالي لآلامهم أو يئن لآهاتهم أو يجزع للأوائهم؛ أو يضنيه دمع جفونهم، ويسوؤه ضنك حياتهم.

ما قيمة هذا الإنسان الذي يعيش في الحياة لا يُبصر أحوال الناس، ما الذي يميزه عن تلك الحجارة الصماء الباردة، التي لا روح فيها ولا وجدان.

علمنا الإسلام أن نعيش لغيرنا، ونشعر بالناس من حولنا، ونبذل الخير ونسعى لتقديمه.. والحرص على كل ما يسعد البشر، ويمنحهم الفرح والسرور.

إنه الإحساس يا أخي في حياة المسلم تلك القيمة التي يغرسها الإسلام في أتباعه، فيتحركون بها في حياتهم كل مظاهر حياتك وشؤونها، حتى يوافق فطرة الإنسان التي خلق عليها، فهذه القيمة مما ميز الله بها البشر، فإذا تنكر لها أحدهم فهو انحراف عن مسار الإنسانية إلى الحيوانية والجمادية.

فقيمتك في إحساسك، وميزتك في شعورك، ويوم أن تتجرد من هذه السمة، فلا معنى فيك للإنسانية أو الآدمية، فإنسان بلا إحساس وبلا شعور، هو آفة على هذه الأرض.

كل هذا لأنه ليس حساس، وقلبه مجرد من الشعور، ولا تعرف الرحمة إليه طريقاً.

حاتم إبراهيم سلامة

الشعور بالآخرين

غرقت قوارب المهاجرين في البحر الأبيض المتوسط، فقررت امرأة مسنة من شمال إيطاليا أن تنتقل من منزلها في إحدى الضواحي، لتفسح المجال لهؤلاء اللاجئين حتى يقيموا فيه، لأنها تأثرت بغرق قواربهم وتشردهم تأثراً كبيراً، وذكرت صحيفة كوريير ي ديل فينيتو): أن (مارا جامباتو) والتي تبلغ من العمر 90 عاماً، تصرفت هكذا بعد علمها بالحادث، والذي يفترض أن 800 مهاجر لقوا حتفهم فيه، وغادرت العجوز مسكنها السابق في (روبانو)، على مشارف (بادوا)، وانتقلت إلى شقة أخرى تمتلكها في وسط المدينة، تاركة مسكنها لجمعية خيرية، ليتم استخدامه لاستضافة 10 من طالبي اللجوء من غامبيا وغينيا بيساو، وقال (سيرجيو فينتورا) وهو أحد أقارب المرأة، للصحيفة : عندما سمعت في التلفزيون عن هؤلاء الأشخاص الـ 800 الذين لقوا حتفهم في البحر، وعندما شاهدت عجز الدولة والمؤسسات العامة، قررت أن تفعل شيئا.

إن المرأة تبلغ من العمر أرذله، وهو أقوى باعث لها على أن تتخلى عن الأثرة، وتعذر فيه لو لم تقم بدورها المجتمعي والإنساني، بحجة أنها طاعنة في السن وتحتاج من يرعاها ويقدم لها المساعدة، لكنها لم تفعل ذلك، وبادرت بهذا العمل الرائع؛ لأن شعلة الإنسانية والشعور بالآخرين المحتاجين، كانت متقدة في ضميرها الحي.!

أما المسلم.. فلا يعقل أن يرى البلاء يصيب المؤمنين حوله، فيقابلهم بقلب فاتر وعاطفة باردة.! ولا يعقل أن تنزل المصائب بهم، فيقف متبلداً مجردًا من الحس والشعور، ومن كان كذلك فهو لا شك ليس ممن وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : "إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس"[1]

[1] - رواه أحمد في مسنده

وقال أيضاً: "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" [1]

هذه هي صورة المؤمنين، يرحم بعضهم بعضاً، ويشعر بعضهم بآلام بعض..

لقد قال الله تعالى عنهم : " ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ"[2]

قال الطبري: أي مرحمة الناس.

إن الحياة اليوم في كثير من المجتمعات، استطاعت أن تجعل من الإنسان أنانياً لا يفكر إلا في ذاته، ومهما ضج الناس حوله بالآلام والآهات، فإنه لا يلتفت لآلامهم ، وهذا هو الخسران المبين، والانسلاخ من قيم الدين، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي"[3] فما أكثر الأشقياء اليوم.

والمبتلى إذا لم يجد من يواسيه ويسانده، فإن المصاب يأكله، والهم يقضي عليه، وكلما كنت قريباً من الناس كلما كان الله قريبًا منك، وكلما زدت في نفعهم، كلما أحبك الله، وكلما زدت في برهم كلما زاد حبه لك.. ولا يعقل أن تطيع الله تعالى وتتقرب إليه، وقلبك جاف تجاه خلقه، لا شأن لك بهم، ولا علاقة تربطك بهمومهم، تعيش في عزلة عن مصائبهم، وتنأى بجانبك عنهم، وهو ما تأمله الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله في نفسه يوماً حينما قال: (نظرت البارحة، فإذا الغرفة دافئة والنار موقدة، وأنا على أريكة مريحة، أفكر في موضوع أكتب في، والمصباح إلى جانبي، والهاتف قريب مني، والأولاد يكتبون، وأمهم تعالج صوفًا تحيك، وقد أكلنا وشربنا، والراديو يهمس بصوت خافت، وكل شيء هادئ، وليس ما أشكو منه، أو أطلب زيادة عليه.

فقلت: الحمد لله ، أخرجتها من قرارة قلبي، ثم فكرت فرأيت أن (الحمد) ليس كلمة تقال باللسان، ولو رددها اللسان ألف مرة، ولكن الحمد على النعم، أن

[1] - رواه مسلم
[2] - البلد: 17
[3] - رواه أحمد وأبو داوود

تفيض منها على المحتاج إليها، حمد الغني أن يعطي الفقراء، وحمد القوي أن يساعد الضعفاء، وحمد الصحيح أن يعاون المرضى، وحمد الحاكم أن يعدل في المحكومين، فهل أكون حامدا لله على هذه النعم، إذا كنت أنا وأولادي في شبع ودفء، وجاري وأولاده في الجوع والبرد ؟، وإذا كان جاري لم يسألني، أفلا يجب علي أنا أن أسأل عنه ؟"[1]

وما أروع هذا المثل الرحيم، حينما جاء رجلٌ إلى بيت صاحبه، فدق عليه بابه فالتقاه وقال: ما جاء بك في هذه الساعة؟ فقال: عليّ أربعمائة درهم هي دينٌ، فوزن له الأربعمائة وأخرجها إليه، ودخل الرجل بيته يبكي، فرأته امرأته فقالت: لمَ أعطيته إذ شق عليك العطاء؟ ظنت أنه يبكي متحسراً لأنه دفع إليه هذا المال، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي، أبكي لأني اضطررته إلى أن يسأل.!

حينما يقسو القلب !

قال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة، أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزَّ وجلَّ على قوم، إلا نزع منهم الرحمة.

وقال: أربع من علم الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا)[2]

وقال ابن القيم: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله)

وقال سهل بن عبدالله: (كل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب فإنها قسوة)

لقد تربع الاستعمار القديم في غفلة من أمة القيم على بلاد الدنيا، يسرق وينهب ويستعبد ويقتل، وتستمر الحياة، وتتصاعد النداءات بحقوق الإنسان وحريته، فهل رغم هذا توقف الكبراء عن ظلمهم وطغيانهم؟ لا.. فالحياة مازالت تذخر بأطماعهم، ومازالت الأرض تنضح بأمثالهم في كل عصر، بل توسعت لتشمل

[1] - مع الناس – علي الطنطاوي
[2] - حلية الأولياء لأبي نعيم

صورتها حكومات ومجتمعات ودول وجيوش يشحنها الطمع، ويشطح بها الجشع، ويحركها الحقد، فتعتدى على الأمم الصغيرة، تقتل الأرواح، وتنتهك الحرمات، وتنهب الثروات.. وهكذا قدر للإنسانية البئيسة أن يقودها هؤلاء البغاة، الذين تجردوا من المشاعر، وسلخوا أنفسهم من الإحساس.

ويتحدث الإمام الأكبر (محمود شلتوت) رحمه الله فيقول: (أما الإنسان إذا قسا قلبه، وخلت من المروءة والشهامة نفسه، وعاش لنفسه فقط، فإنه لا يعبأ بآلام الناس ، ولا يكترث لمصائب ، ولا يشارك في تخفيف الويلات ، فذلك وحش ضار في صورة إنسان!

إن الرجل الذي لا يؤثر في نفسه منظر البؤس ، ولا ضحية من ضحايا الفقر ، لهو رجل فظ غليظ، قد من الحجر الصلد قلبه ، وصيغت من الصلب الجامد أعصابه، إن الرجل الذي يكون همه في ليله ونهاره أن يحسب حساب دخله وخرجه، ولا يحدث نفسه في ساعة من ساعاته عما أحسن أو بر أو تصدق ، لهو رجل غير جدير بإنسانيته ، غير جدير بأن يعيش بين الناس كأنه واحد منهم ، وإنما مكانه بين الوحوش الضاريات، في جبل أو فلاة.. إن الإنسان هو الذي يرحم، وهو الذي ينقذ المُوَرَط، هو الذي ينهض العاثر ، هو الذي يحمل الكل، ويحنو على الضعيف.)[1]

ما أصدقه من كلام وما أروعها من حقائق .!

سُئل (كونفشيوس) من أحد تلامذته هذا السؤال:

كيف أؤدي واجبي تجاه الأرواح..؟

فأجابه (كونفشيوس):عندما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء.!

وهذه النخلة كان الفناء مصيرها، حينما اتخذت منهج القسوة، ومنعت خيرها عن الأحياء ، إذ يُحكى أنه كانت هناك نخلة تثمر كل عام كميات كبيرة من

[1] - توجيهات الإسلام للإمام الأكبر محمود شلتوت

التمر والرطب، وكان صاحب الحديقة يحبها حبا شديدا ويتولاها بالرعاية والاهتمام، وفجأة قالت النخلة لنفسها: لماذا أرهق نفسى وأثمر هذا الرطب، ولا أحصل شيئا من هؤلاء البشر غير الرمي بالحجارة، عندها قررت عدم الإثمار وجاء موسم التمر والرطب، وهى واقفة كالوتد لا خير فيها ولا ثمر، وبخلت بما حباها الله به من نعم على عباد الله، ضاق صاحب البستان ذرعا بها وقرر اجتثاثها والانتفاع بخشبها في التدفئة فى برد الشتاء، ولقد كتب إيليا أبو ماضى يصور حال هذه الحمقاء فقال في نظم مشوق:

وظلّت النخلة الحمقـــاء عارية

كأنها وتد في الأرض أو حجـــر

فلم يطق صاحب البستان رؤيتها

فاجتثها فهوت فى النار تستعر

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به

فإنه أحمـــــــــق بالحـرص ينتحر

الفضيلة الغائبة

يمكن بكل سهولة ويسر أن يتحول الإنسان إلى حيوان، يمكن ذلك جدًا، ودون الحاجة للتدخل الجراحي أو أعمال السحر والحواة، التي يمكنها تحقيق ذلك في هذه الأزمان المتقدمة، ما عليه فقط إلا أن يفقد قلبه، ساعتها يمكن تشبيهه بالحيوان، بل يمكن أن يكون أشد فظاظة من الحيوان.

لقد مات القلب ومعناه موت الدين والضمير والخلق في النفس، فلن تفرز هذه الروح الخبيثة إلا بشرا حقيرا ساقطا لا مشاعر له ولا قيم ولا حياء ولا خاطر ولا رعاية لأحاسيس الآخرين.

موقفي من الممثلين والممثلات والراقصين والراقصات أنهم بمنحاهم الرخيص لا يثمرون مجتمعا صالحا، لكن تبقى إنسانيتهم في المقام الأول، ومن حقهم علينا كبشر أن نعاملهم بما وجب أن نعامل به الانسان، من احترام لكيانه وآدميته، ورعاية مشاعره والحذر من جرح إحساسه.

منذ أيام أعلنت فنانة أن ابنتها ولدت صماء ليرد عليها فتى أحمق:

(يا أم الطرشة)

والحق أن اللفظ عنيف بشع، في قمة الغلظة والحقارة، ولا يصدر إلا عن نفس قبيحة مجردة من كل معاني الانسانية والرحمة والشفقة والذوق والحزن والاعتبار لمصاب الاخرين، ومثل هذه النوعية من الناس يجب على المجتمع أن يُقنن لهم عقابا قاسيًا، لأنهم يصدمون مشاعر الآخرين، ويجرحون أحاسيسهم، ولا أمانع أبدًا ولا أستقل أن يكون هذا العقاب بالسجن أو الجلد، أو أي لون من ألوان التعزير الشاق المؤلم.

لق صار بيني وبين كثير من أهل العلل، خلافات وشقاقات، ولكن ذلك لم يكن أبدًا ليسمح لي أن أعيرهم بعلتهم، أو أغلِبَهم بذكر مناقصهم، خاصة تلك التي خلقهم عليها بارئهم سبحانه.

الإحساس.. تلك النعمة العظيمة التي افتقدها الإنسان هذا الزمان وتجردت منها أخلاقه وأفعاله وضميره في كثير من الأحايين والبلدان والأماكن.. إنها الفضيلة الغائبة التي تجردت منها أيامنا وتعرت منها حياتنا.

وهي الفضيلة التي ما عدمتها أمة، حتى تهان فيها الإنسانية، وتسحل فيها كرامة البشر، وتعج بالمآسي وتنزل بها المصائب والمحن.!

ولعل هذه النعمة العظيمة التي تجردنا منها اليوم، إنما ترجع بذورها الأولى إلى البيت والأسرة والتربية، التي يشب عليها النشء، فإذا أنكرها بيت من البيوت، ولم يحرص على بث روحها في فتيانه، خرجوا بهذا النكير، جبابرة

قساة عتاة غلاظا، لا يعرفون معنى الرحمة والإنسانية، ولا ترد معالمها في تصرفاتهم وأفعالهم وعلاقاتهم مع الناس، فتجف المشاعر وتنضب العواطف، وينعدم الإحساس بالآخرين.

أدعو وزارة التعليم أن تدرس مادة الاحساس في المراحل التعليمية.! ليخرج جيل حضاري مفعم بالمشاعر، متدفق الأحاسيس، راقيا متحضرًا في معالمة الأحياء.

حدثتني هذه المرأة يومًا: أنها لم تكن تسمع جيدًا، كانت تعجز عن متابعة الأصوات من حولها، تسمع بنظارتها وعقلها وقلبها، تقرب من الكلمات وتدرس تنظيم الجمل وحركة الشفتين، لتفهم المراد وتستشف المعنى، الذي رُسم بين الأحرف، التي عجزت أذنها عن سماعها.

لم يكن أحدٌ يعلم أنها صماء، فقد كانت بارعة جدا في إخفاء عجزها ذاك، وأخبرها الطبيب ذات مرة أنها اتقنت لغة الشفاه دون وعي حقيقي منها ..

كانت إن عجزت عن سماع جملة ما، صمتت أو ردت ردًا محورا لتخرج من الأمر بطريقة منمقة راقية غير محرجة، نجحت في ذلك مرات عدة، وفشلت مرات أكثر.

وذات يوم كانت تسير بالشارع تقود سيارتها، وخلفها سيارة تضرب بوقها بقوة، لكنها لم تكن تسمعها وظلت تسير بنفس هدوئها في وسط الطريق، حتى ضاق صاحب السيارة ذرعا بها فأوقفها، ونزل يصرخ بها بقوة جعلتها تتمنى لو ابتلعها الأرض خجلا وحرجا، حاولت أن تعتذر بأدب قائلة:

-عذرا لم أسمع!!

فكان الجواب : "ليييه طرشا ولا إيه ؟!"

نعم هي 'طرشا' هذه هي الحقيقة المطلقة!

لكنها بكت كثيرًا تلك الليلة، وهي تفكر لماذا نرفض في هذا العالم أن نتقبل ضعف الآخرين؟!

أخيرًا قررت أن تجازف، وسعت حثيثا لتتخلص من عجزها هذا، حتى علقت تلك السماعات الطبية، بعد إجراءات ومتابعات وقياسات كثيرة ..

هي الآن تسمع جيدا، تسمع الهممات من حولها ، وذات ليلٍ سمعت صوت الضفادع في حديقة المنزل، وسمعت صوت قطرات الماء التي كانت تتساقط من الصنبور بالمطبخ كما لم تسمعها من قبل .

صار حالها ممتازا، وهي تسمع جيدا، لكنها عجبا كرهت هذا بشدة، كرهت تلك الضوضاء، وأخفت في داخلها ذلك، وهي تشتهي أن تعود لعالمها الساكن الهادئ..

لكنها تعلم أن التفكير بهذه الطريقة أمر مشين فهل يصح أن ترفض نعمة الله التي منّ بها عليها بينما غيرها لا يستطيع أن ينالها ؟!!

لذا قررت أن تلتزم بها وتحتمل ذلك الصخب المنهك من حولها، لكنها تحرص أن تسرق ساعة لروحها تخلع فيها تلك السماعات، ليتوقف كل هذا الصخب من حولها، وتعود لتلك اللحظة الصماء التي أعتادتها، وهناك تبحث عن روحها وتشحذ طاقة من غيمات أحلامها، كي تستطيع أن تعود لصخب هذا العالم من جديد .

وذات يوم كتب أحد الأدباء: قدِّرْ ألفَ عذرٍ قبل لومةٍ واحدة!

رجعتُ من الرّياضة ذات مساء، وقد بلغ منّي التّعبُ كلّ مبلغٍ، وغشيني من النّصب ما غشيني، فارتميت في الكرسيّ مستريحًا، وجرى أن فتحت الهاتف لقراءة الرّسائل الفائتة؛ ريثما أَسْتَوْفِرُ نصيبي من الاستراحة والاستجمام، فوجدتُ في ثنايا الرَّسائل رسالةً، يلقيها صوتٌ جَهْوَريٌّ يسلّم ويسأل ويستفسر، فاستمعت إلى الصّوت، ثمّ رددت عليه كتابةً، فردّ عليَّ صاحبُنا بصوته مرّة

أخرى، وهو يلقي في خلاله أسئلة تهمُّه، فأجيب عليها كتابةً، وقد استمرّت المراسلة على هذا النّحو، حتّى كدت أضيق ذرعًا بهذه الرّسائل الصّوتيّة التي لا يتخلّلها حرفٌ واحدٌ يكتبه المتحدّث، فطفقت أقول في نفسي: لماذا لا يريحني من ذهاب وقتي في الاستماع ثمّ الكتابة، ولو كتب بدل تسجيل صوته، لاطّلعت على فكرته في أقصرَ من ثانيةٍ، ولكان ذلك أسرع إلى الرّدّ، وأَصْوَنَ للوقت.

كان ذلك حديثًا لم أبُح به، وإنّما تردّد في نفسي تردُّدًا، ولكنّني صبرت وتحمّلت، ولم أُبْدِ في رسائلي ما يدلُّ على الضّجر والملل، فأجبت على أسئلته قدرَ المستطاع، وفي نهاية المراسلة، بعد شكر السّائل لي، وتقديره للاستجابة، قال لي: أنا كفيفٌ يا أستاذ! لا أبصر شيئًا، وإنّما أقرأ من خلال تطبيقٍ خاصّ بالمكفوفين؛ ولذلك أسجّل رسائلي بالصّوت عوضًا عن كتابتها، فأعتذر عن الإطالة!.

فحمدتُ الله على أنّني لم أصارحه بالشّعور الذي حدّثتني به نفسي، وشكرت ربّي على أنّ قلمي لم يفرط إلى مكاتبته باللّوم والتّوبيخ على كثرة التّسجيل، فأخذت من ذلك كلّه درسًا في الحياة، وهو: قدّرْ ألفَ عذرٍ قبل لومةٍ واحدةٍ.

كم نلاقي من يرتطم بنا في الممرّات، أو تطأ قدمه أقدامنا في الطّرقات، لا لأنّه يمشي في الأرض مرحًا، ولكن لأنّه مشغول البال، شارد الذّهن بهموم نفسه وأهله، فلا يكاد يركّز فيما أمامه وإن شهدتْه عيناه، وكم نكلّم غيرنا، فيردّ علينا بكلمةٍ قاسيةٍ، لم تأت منه قصدَ الإساءة والاستعلاء، وإنّما انْفَلَتَتْ منه لما يستبدُّ به من عوارض النّفس الخانقة، وكم حاضرٍ يغيب، وكم غائبٍ يحضر، وكم حكيمٍ يُستدرج، وكم لبيبٍ يُستغفل؛ لا لأنّه أراد ذلك، وإنّما وقع فيه غير مالكٍ من أمره شيئًا، فَقَدِّرْ ألف عذرٍ قبل لومةٍ واحدة.

إنسانية عالية

كان قتيبة بن مسلم والياً، وذات يوم وفد عليه أعرابي يشكو من غريم له، وكان ضعيف البصر، ووقف الأعرابي وهو متكئ على سيفه كعادة العرب حينئذ، ثم

شرع يسرد شكواه، والغريب أن سيف الشاكي كان مستقراً على قدم الوالي، فجرحه وسال الدم منه.

ولما فرغ الرجل من عرضه قضيته، طلب الأولى ما يجفف به دمهُ فقيل له: أفلا نبهت الرجل فقال: خفت أن أذكره بضعف بصره.

فقيل له: أفلا نحيت قدمك بعيداً عن السيف؟ فقال الوالي: أخاف أن أقطع على الرجل كلامه.!

فيا له من زوق رفيعٍ وأدبٍ جم، خاف أن يجرح مشاعر الرجل، فيذكره بعيبٍ فيه فيُحزن نفسه، أين هذا من هؤلاء الذين يعيرون الناس بعيوبهم التي قدرها الله عليهم دونما التفات إلى مشاعرهم وأحاسيسهم؟! وهكذا المسلمون الأول، كانوا على استعدادٍ لأن تسيل دماؤهم ولا يجرحون من حولهم.

ولله در القائل:

جراحات السنان لها التئام** ولا يلتام ما جرح اللسان

ومن التعليقات، التي لفتت نظري، تعليق شاب يعاني من إعاقة جسدية منذ ولادته، حيث وجَّه رسالته إلى معلم القرآن، الذي جعله يواري يده عن الناس، خشية من التعرض للسخرية والاستهزاء، قائلاً له: "عشت حياتي أحاول أن أخفي يدي بسببك، ولا أتمنى أن يراها أحد». لقد شعرت بمرارة الألم، الذي لا يزال في أعماق ذلك الشاب، الذي تعرض على يد معلم القرآن إلى أبشع وأقسى تجربة يمر بها إنسان في مراحل عمره المبكرة جداً، وسبب مضاعفة الألم في نفس ذلك الشاب، هو أن معلمه كان يسخر من إعاقة يده أمام أقرانه الصغار، الأمر الذي سبَّب له عقدة خوفٍ من أن يلاحظ الناس إعاقة يده طوال السنوات الماضية!

هل يا ترى لا يزال ذلك المعلم يمارس تحطيم نفوس الصغار بذات القسوة والعنف؟ ماذا سيكون موقفه لو أن ابنه هو مَنْ تعرض لذلك الموقف غير الإنساني؟ إن من الناس مَنْ يتلذذ بتعذيب الآخرين نفسياً وبدنياً، رغبة في التخلص من رواسب ماضية موغلة في الحرمان والألم، وهؤلاء لابد من إبعادهم من البيئة التعليمية كيلا يطلقوا العنان لأمراضهم النفسية، ويتسبَّبوا في ضياع مستقبل أبنائنا الطلاب."

وهذا حاتم الأصم يراعى شعور امرأة ويزيل حرجها، في موقفه النبيل منها حتى لقب بالأصم) وشاع عنه هذا اللقب.

دخلت عليه لتسأله عن حكم شرعي، وبينما هي تسأله إذا بحدثٍ يغلبها فضرطت (أي اخرجت ريحاً)، فاستحت وكفت عن السؤال، فقال لها: ارفعي صوتك، أريد أن أسمع سؤالك، وأعاد هذا مراراً، فاطمأنت المرأة وهدأت، وظنت أن سمع حاتم ضعيف، فسألت سؤالها وأجابها، وانطلقت.

قال عبد الله بن أخت مسلم بن سعد: أردت الحج، فدفع إلى خالي عشرة آلاف درهم، وقال لي أذا قدمت المدينة فأعطها أفقر بيت بالمدينة، فسألت عن أفقر أهل بيت بالمدينة، فدلوني على أهل بيت، فطرقت الباب، فأجابتني امرأة، فأخبرتها بالخبر وأردت تسليمها المال، فقالت: يا عبد الله إن صاحبك اشترط أفقر أهل بيت، ومن بجوارنا أفقر منا!

فتركتهم وأتيت أولئك، فطرقت الباب، فأجابتني امرأة فقلت لها مثل الذى قلت للمرأة الأولى، فقالت: يا عبد الله نحن وجيراننا في الفقر سواء فاقسمها بيننا وبينهم!

هكذا يراعى بعضهم حاجة بعض، ويضن بالعطية على نفسه من أجل أخيه، ولم يكن هذا سمت أهل المدينة وحدهم، وإنما هو شعور عام كان يسود حياة المسلمين وتترجمه أخلاقهم، العالم من حولهم يعيش فينهب بعضه بعضا،

وهؤلاء يؤثرون على أنفسهم ويشعر بعضهم ببعض، ويتمنى الخير كلاً منهم لأخيه، حتى صعب على صاحب العطية أن يتعرف على أفقر بيت في المدينة.

في أمريكا.. تم القبض على رجل عجوز قام بسرقة رغيف خبز ليمثل أمام المحكمة، واعترف هذا العجوز بفعلته، ولم يحاول أن ينكرها لكنه برد ذلك بقوله:

كنت أتضور جوعاً، كدت أن أموت! القاضي قال له :"أنت تعرف أنك سارق وسوف أحكم عليك بدفع 10 دولارات وأعرف أنك لا تملكها لأنك سرقت رغيف خبز، لذلك سأدفعها عنك"

صمت جميع الحضور في: تلك اللحظة، وشاهدوا القاضي يخرج 10 دولارات من جيبه ويطلب أن تودع في الخزينة كبدل حكم هذا العجوز.!

ثم وقف فنظر إلى الحاضرين وقال :"محكوم عليكم جميعاً بدفع 10 دولارات لأنكم تعيشون في بلدة يضطر فيها الفقير إلى سرقة رغيف خبز"

في تلك الجلسة تم جمع 480 دولاراً ومنحها القاضي للرجل.

العجوز. قاضي ينقصه الإسلام.. قال الشيخ الشعراوي رحمه الله :"إذا رأيت فقيراً في بلاد المسلمين فاعلم أن هناك غنيًا قد سرق ماله"

أنانية البشر

أسرع (غاندي) يوماً ليلحق بالقطار، فأدركه في لحظاته الأخيرة، ولكنه لما بدأ القطار في السير صعد غاندي وفي أثناء صعوده، سقطت إحدى فردتي حذائه، فما كان منه إلا أن خلع الفردة الثانية وبسرعة رماها بجوار الفردة الأولى على سكة القطار، تعجب من حوله بهذا الصنيع ، وأسرعوا يسألونه: ما حملك على ما فعلت ؟! لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟

فكان جوابه الحكيم: أحببت للفقير الذي يجد الحذاء، أن يجد فردتين فيستطيع الانتفاع بهما ..فلو وجد واحدة، فلن تفيده الأخرى ..أنا كذلك لن أستفيد منها أيضاً.

ولعله يذكرنا بموقف ذلك اللص الذي سرق عمامة (عمر بن الخطاب) في السوق وولى هارباً، فأخذ عمر يركض خلفه وهو يصيح ويقول :أشهد الله أنى ملكتك إياها.. فقل قبلت حتى لا تمسك النار)..ولم يكن عدَوه وراءه ليقبض عليه، وإنما ليبرئه منها ويعلمه بذلك، بل ليرد عليه بأنه قبل مسامحته فيها.!

أما غاندي فإنه برهن عمليا على أنه لم يكن أنانياً، لأن الأنانية تعمي عن التفكير في الغير، إنه على جناح السرعة رمى بحذائه الآخر حتى ينتفع به غيره، ولو أن نفسه كانت محور اهتمامه، لاستاء من فقدانه للحذاء الأول.

وقد قيل: (إذا فاتك شيء فلا تأسى عليه لأنه سيذهب إلى غيرك، ويحمل له السعادة ويسره)

وهو نفس ما تأملته حينما اصطدمت سيارتي يوماً، فصرت كئيباً محزوناً، ولكنني بعد روية أدركت أن ما أنفقه عليها، رزق ساقه الله لمن يصلحها، وهكذا تطمئن النفوس وتسعد حينما تتلاشى منها الأنانية.

نكتب هذه السطور لننشد أناساً يرحمون البشر بعدما شقيت دنياهم بالعذاب والآلام جراء الأنانية، فلا تلبث الساعة أن يقفز عقربها، حتى نسمع عن تدمير هنا وهلاك هناك.. أشلاء ودماء تشهد كل يوم بقسوة البشر ووحشية قلوبهم، لقد غابت الأحاسيس والمشاعر عن هذا العالم ، وتنكرت الدنيا للوجدان والعاطفة، أما حينما طغى الإنسان وصار لا يؤمن إلا بنفسه وذاته، حتى لو هلك أهل الأرض كلهم أجمعون ، وهي الأنانية التي بسببها لن تستقر للبشرية حياةٌ ولن تعرف لنفسها قراراً ، مادامت لها جذور في نفوس أحيائها.

اقرأ معي ما قاله (العقاد) وهو يرثي هذه الإنسانية المعذبة:

(مسكينة هذه الإنسانية، لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء، يزداد في هذا الزمن خصوصا من دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذي وُجدت فيه الوحدة الإنسانية وجوداً مادياً فعليا، وأصبح لزاماً لها أن توجد في الضمير، وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات)

ويقول (أرسطو) : (إننا في حبنا الخير لغيرنا وفي بحثنا عنه نجد لأنفسنا خيرا)

وقال (سكنا): (لو أعطيت الحكمة كلها لنفسي على أن استأثر بها وامنعها عن إخوتي بني الإنسانية لكرهت الحكمة)

لقد كانت هذه المثل موجودة في الغرب على مستوى أشخاص معدودين، وهي القيم التي أقرها ديننا وقدمتها حضارتنا، فكانت على مستوى عريض يمثله مجتمع كبير ، ويتبارى في تقديمها خلق كثيرون كبارا وصغاراً رجالا ونساءً..!

لقد حاول هؤلاء الحكماء أن يعبروا عما أقره القرآن الكريم وصوره الله تعالى في آياته المحكمات عن طبيعة العلاقة بين المؤمنين، تلك العلاقة السامية الراقية التي تتجرد من الأثرة والأنانية والتعالي وحب الذات قال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) ولقد كانت الأخوة بينهم كائنة بمعنى الكلمة، التزموا تحقيقها كما التزموا تحقيق الصلاة والزكاة، حتى تعدت بينهم إلى طور لا مثيل له، فكان منهم من يفدي أخاه بنفسه وماله.

ومن جميل ما يروى عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلًا لهم أرغفة معدودة لا تكفيهم شبعًا، فكسروها وأطفأوا السراج، وجلسوا

للأكل، فلما رفعت السفرة؛ فإذا الأرغفة محلها لم ينقص منها شيء، لأن أحدًا منهم لم يأكل إيثارًا للآخرين على نفسه حتى يأكلوا جميعًا.!

وفي الهجرة إلى المدينة، كان المسلمون الأول لا يحملون من متاع الدنيا سوى ثيابهم البالية، وأجسادهم المنهكة، وثقتهم بما وعدهم ربهم سبحانه، فشاهد النبي حالهم فكان نداءه الأخوي للأنصار، والذي دعا فيه لتطبيق مبدأ الأخوة بينهم وبين المهاجرين:

(إخوانكم تركوا الأموال والأولاد، وجاءوكم لا يعرفون الزراعة؛ فهلا قاسمتموهم؟ قالوا: نعم، يا رسول الله! نقسم الأموال بيننا وبينهم بالسوية، فقال لهم النبي: (أوَ غير ذلك؟ قالوا: وما غير ذلك يا رسول الله؟ قال: (تقاسموهم الثمر، قالوا: نعم يا رسول الله، بم؟ قال: بأن لكم الجنة."[1]

وهكذا نجح هذا المجتمع الأول ونال الإشادة من ربه تعالى حينما وصف أفراده بقوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2]

لقد كان بنو هاشم وبنو أمية يتسابقون في الفضل والشرف، وكان لكل منهم طريقة تغاير طريقة الآخرين في هذا السباق، ولكن بنو هاشم كانوا أفطن منهم إلى السلوك النجيب الذي عزز مكانتهم بين الناس، كانوا يفكرون في غيرهم، أما بنو أمية ففكروا في ذواتهم.. لقد وضح الفرق بينهما (في الخلائق والمناقب في الجاهليّة قبل الإسّلام، فكان الهاشميون شرّاعاً إلى النجدة ونصرة الحقّ والتعاون عليه، ولم يكن بنو أُميّة كذلك، فتخلّفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قُريش: ليكونن مع المظلوم حتّى يؤدّوا إليه حقّه، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش والتساهم في المال، وليمنعن القويّ من ظُلم الضعيف، والقاطن من عنف الغريب، واتفقوا على هذا الحلف؛ لأنّ العاص بن وائل اشترى بضاعة من

[1] - صححه الألباني
[2] - الحشر: 9

رجل زبيدي ولواه بثمنها، فنصروا الرّجل الغريب على القرشي وأعطوه حقّه)[1]

تقول الكاتبة (أمل الطعيمي): (خذ مثلاً كم مرة مررت بسيارتك بجانب أخرى معطلة وصاحبها وقف يطلب العون، وأكملت مسيرك دون أن تفكر بالتوقف للمساعدة!، وكم مرة رأيت أحدهم وهو يحمل أحمالا ثقيلة ولم تعرض عليه المشاركة!، كثيرة هي هذه المواقف التي تجعل من ينظر للموقف عن بعد يتساءل أين ضاعت الرغبة في مد يد العون من أجل الامتثال للقيم الإسلامية العظيمة في التعاون والتراحم والإغاثة والإيثار والمساعدة ؟

هذا شاب كفيف خرج من مدرسته، وأثناء وجوده في الحافلة شعر بالجوع واتصل بالمطعم ليضمن وصول وجبته للغداء في أقرب وقت من وصوله لبيته حيث يعيش بمفرده، وفعلا وصل إلى بيته وبعدها بدقائق وصلت الوجبة، خرج لاستلامها وسرعان ما سمع صوت انغلاق الباب الحديدي للشقة خلفه، بقي هو ووجبته في الخارج، وهو يكابد حرارة الشمس وحرارة الجوع فطن له رجل خدمة التوصيل، فطلب له العون من جاره تقدم نحوه وعرف بالأمر وقال: وماذا يمكن أن أفعل؟ وذهب بلا رجعة، بعدها بلحظات سمع خطوات لآخر فناداه طلبا للمساعدة، وقال له الآخر :سأذهب وأعود إليك، ولكنه ذهب ولم يعد..

وما زال الشاب واقفا مجهدا بعد عناء دوامه المدرسي، وجوعه وحرارة الشمس الحارقة، هاتفه بالداخل والباب صلب عنيد.. دقائق فإذا بشخص سخره الله له، عرف بالأمر وحاول قليلا مع الباب ولم تفلح المحاولة، فعرض على الشاب أن يرافقه إلى سكنه حتى يأكل طعامه ويرتاح قليلا ثم يعودوا للباب، ولكن الشاب شكره وقرر الانتظار، ذهب الشاب وما هي إلا دقائق معدودة ليعود ومعه صديق آخر، وآلة يحاولون بها فتح الباب بذلوا جهدا ووقتا وأخيرا فتح الباب بمساعدتهم، وأحدهم يقول بعد أن استمع لشكر الشاب له: يا أخي

[1] - الحسين أبو الشهداء - العقاد

(الناس لبعضيها) فهل كلنا نطبق هذه المقولة البسيطة الجميلة؟ هل حقا نحن مقتنعون بها وعاملون بمقتضاها (الناس لبعضيها)

طفولة شاعرة

أعز الله أمي.. فلا زلت أذكرها حينما كانت تزج بي في عالم الإحساس، وتجندني في عملها الإنساني، الذي فطرني على قيمة الإحسان والإحساس، كانت تحب الخير وتفعل البر وتغيث المكروب وتواسي المرضى، لا ترد سائلاً طرق باب بيتنا، تُشفق على المعوذين والمحتاجين، وتبذل ما تستطيعه لسد حاجتهم.

ما زلت أذكرها حينما كانت تعد الطعام وتطهو الشهي منه، وتصف أطباقه بطريقة محكمة جيدة، وتضعه في يدي وتقول لي: اذهب بهذا واعطه لخالتك فلانة، وأحمل الطعام وأسير في طريقي، ولم أكن أعلم أن كل خطوة كنت أخطوها، كان يتعاظم معها في نفسي حب الخير، وينمو في قريحتي شعوري بالآخرين، ثم يبلغ الموقف أعلى لمساته الإنسانية، حينما أطرق باب السيدة الفقيرة، وأسلمها الطعام الذي أعدته أمي، فما أن تفتح بابها و تراني، حتى تأخذ ما في يدي بلهف شديد ، ويسترسل لسانها بدعوات قوية عميقة، لا أظن أبداً من فرط حرارتها أن الله تعالى يردها، لأنها نبعت من قلب مسكين، وامتزجت بالرجاء والامتنان.

في قراءتي لرحلة حياة الأديب الكبير (عبد الحميد جودة السحار) وفي سيرته الذاتية (هذه حياتي) وفي مرحلة صباه، لفت نظري هذه الطفولة المفعمة بالإحساس والإحسان والمشاعر النبيلة تجاه الناس، فكيف لهذا الطفل أن يرقى لهذه الفضائل العالية؟ فيترجمها لمواقف سامية نرجو أن تسود في تصرفاتنا وسلوكنا وكل حياتنا، إن قلبه كان ينكسر إذا رأى أحداً ممن حوله ألمت به مشكلة أو أذله الفقر أو جافته السعادة وصار حزيناً مهموماً، وفي أكثر من مشهد يصف الصبي السحار، كيف تألم لآلام المحتاجين، وأصحاب المشكلات،

ويجهد نفسه في التفكير والبحث ليجد المخرج من أزمتهم ، وكيف يساعدهم ليتجاوزوا محنتهم ؟!

وفوق هذه المواقف المثالية لا نغفل كقراء، أو لا يغفل السحار نفسه ككاتب، أن يعزونا لأسبابها !

فهذه الطفولة الكبيرة، بتصرفاتها العظيمة، ما غرس فيها معالم الإنسانية العالية إلا والد صالح استطاع تعليم ولده بالقدوة الحسنة والسلوك الرشيد، أن يكون إنساناً في طفولته، تلك الطفولة التي لا تبالي في أغلب الأحيان بما يحيط بها من مشكلات وأزمات.

فها هو يروي تأثير أبويه وأسرته في نفسه، وكيف كان أهل البيت كلهم لا يغيب عن ألسنتهم ذكر النار والخوف منها.

يقول:" لم تخمد نار جهنم في ضمائرنا أبداً ، فكل من نحتك به من أهل البيت لا يفتأ يذكرها، وكان أبي وأمي وجدتي وعمي الذي يسكن معنا في دار واحدة يبذرون بأفعالهم الطيبة بذور الخير في أعماقنا ، فقامت الجنة والنار في سرائرنا جنباً إلى جنب وعرفنا مذ كانت لنا مدارك أن لكل فعل مثوبة وعقوبة في الدنيا والآخرة."

يقول :"ما كان التعليم إلا لقادري على سداد الأقساط المدرسية في مواعيدها ، ولا أستطيع أن أنسى جاري في السنة الثالثة الابتدائية الذي عجز عن سداد المصاريف لوفاة أبيه ، وجاء ناظر المدرسة إلى فصلنا، وطلب منه أن يغادر المدرسة وألا يعود إلا إذا كانت معه المصاريف ، وكان عليه أن يسدد ثلاثة حنيهات، ولكن كل موارد أسرته عجزت عن تدبير المبلغ، فخرج من مقعده وسار بين الصفوف مطأطئ الرأس يسح الدموع، غاص قلبي في ذلك اليوم وكاد أن يتمزق أشلاء ؛ لم أكن لأملك غير الحزن، وكنت أصغر من أن أمسح عنه تلك المذلة، وفكرت في أن أفاتح أبي في الموضوع وأن أسأله أن يسدد

المبلغ، وما كان أبي ليحجم عن ذلك ، ولكن لو كنت فاتحته، أكان قادراً علي أن يسد مصاريف كل العاجزين عن دفعها في مدارس الحكومة"

ثم يصف حالة مختار صديق من أصدقاء الطفولة، حينما نشب بينه وبين والده الذي ربطه في شجرة وأخذ ينهال عليه ضرباً، وما أن فك وثاقه حتى أطلق قدميه للريح وطفش من البيت، وهام على وجهه في الشوارع والحارات طريداً شريداً جائعاً.. يرتدي جلبابا على لحمه في الشتاء القارس ، حتى إذا ما عضه الجوع خطف رغيف عيش من دكان أي بقال يقابله، وراح يلتهمه في شراهة، والبقال ينظر في صمت وقد أحس عطفاً أو غيظاً ، فهو يعلم أنه لو احتج، أو بدرت منه بادرة استياء، فسيصبح الدكان أثراً بعد عين.

وخرجت من شارعنا شارع جنينة الكوة إلى شارع سكة الظاهر ، فرأيت مختار قادما يتلفت وهو يرتدي جلبابه وقد ظهر صدره العاري ، ولاح عليه الهزال ، إنه يكاد يموت من الجوع ، وثارت في جوانحي شفقة عليه لم أستطع أن أقف مكتوف اليدين، فعدت إلى دارنا وطلبت من أمي مصروفي اليومي، وكان قرشاً صاغاً ، وكان من الممكن في ذلك الوقت أن تشتري به أشياء كثيرة.

وهبطت في الدرج قفزاً ورحت أعدو إلى أقرب بقال في الحي، واشتريت بالقرش عيش فينو وجبنة رومي، وكنت أرصد مختار في قلق وهو يذرع الشارع دون هدف كحيوان عضه الجوع يبحث عن طعام في أي مكان.

وقفت في مكاني برهة ، لم أجد في نفسي الشجاعة أن أقدم السندويتش إلى مختار فقد تقاصرت نفسي واعتراني خجل شديد ، فإنني أضعف دائما أمام جرح إحساسات أي إنسان.

إنني مريض بمرض الكرامة، إن أي تصرف تافه يجرح كرامتي، يصيبني بحنق ويولد في ثورة طاغية، لذلك أتحاشى ما وسعني الجهد أن أجرح كرامة الناس ، فماذا أفعل حتى لا أجرح كرامة مختار؟!.

وسرت في الاتجاه العكسي الذي يسير فيه مختار وأنا أرفع السندويتش في يدي، كأنما كنت أحمل شمعة تنير لي طريقي ، فلما التقيت بمختار في عرض الطريق، رأى ما أحمل في يدي فانقض علي وخطف السندويتش، وراح يلتهمه في شراهة وأنا أرقبه في فرح ، فقد وفر علي حرج تقديم السندويتش إليه.

وصارت عادتي في كل صباح أن أحمل السندويتش في يدي وأن يخطفه مختار مني، حتى عاد مختار إلى بيت أهله ، ولا أدري متى عاد وكيف عاد؟ فقد حرمني من مصروفي اليومي فترة الشتاء ، وكان أقسى ما كابدته من حرمان، أنني طوال تلك المدة لم أذهب إلى السينما ، وكل عزائي أنني أنقذ إنساناً من أن يموت جوعاً، فما أقسى أن يموت من الجوع ، والمحال على جانبي الطريق مليئة بالخيرات."

وتأمل في تفكيره وكيف كان يخشى أن يتحول فرط الإحساس إلى جرح الإحساس يقول:" كان أولاد عمي قاسم الذين كانوا في مثل سننا يمضون النهار معنا وكثيراً ما كانوا يبيتون عند جدي ، فكنا ننام معهم على مراتب تطرح لنا على الأرض ، فما كان في البيت كله سرائر تكفي عددنا الكبير ، كنا ننام على مرتين كالسردين في علبة الصفيح ، وكان جدي يطعم أبناء عمي بيده، وكانت جدتي لا تبخل عليهم بالفلوس التي كانت تضعها في طاسة هندية صغيرة، وتوزعها على من يدخل عليها من أحفادها، وما أكثرهم من بنين وبنات ، وكان أبي يمسح رؤوسهم بيده في عطف ، وكان كل من في البيت يبالغ في إكرامهم لأنهم أيتام، وما كنت على الرغم من صغر سني، أستريح لذلك العطف المبالغ فيه، فقد كنت أستشعر أنه يجرح شعور الأطفال ويظهرهم بيننا بمظهر الضعفاء"

بل تعدى السحار في مشاعره وحبه للآخرين من بني الإنسان ، إلى بعض بني الحيوان ، فيروي لنا كيف اعتصر حزناً وكمداً على خروفه الذي توثقت بينهما صداقة متينة ثم أخذوه عنوة ليذبحوه.

يقول:" كان علينا أن نضحي في عيد الأضحى، فجدتي وأمي وعمتي قررن ألا تقطع لنا عادة طوال غياب أبي – وكانوا أبوه قد ذهب إلى الحج- وصعد أطفال الأسرة وشبابها إلى السطح ليشاهدوا الجزار وهو يذبح ما تجمع هناك من خراف، ولم أشارك إخوتي هذه المناسبة، فقد كرهت رؤية الخراف وهي تذبح مذ كنت طفلاً، فقد أشرفت في ذلك الوقت على تربية خروف توطدت بيني وبينه صداقة متينة، حتى أنني إذا ما سرت سار خلفي وإذا ما جريت في ميدان الظاهر جرى خلفي حتى يلحق بي ويتمسح بي ، فأحببته حباً عظيما ، فلما جاء عيد الأضحى أخذوه ليذبحوه، فتشبثت به وبكيت وتوسلت إليهم ألا يفعلوا، ولم يلتفت أحد إلى هذياني وأخذوه مني وفجعوني فيه.. بكيت عليه بكاء وغص عليه حلقي ، ولم يمنعني حزني عليه أن آكل لحمه مع الآكلين"

أمة حساسة

لقد أراد الرسول ^ لأمته أن تكون أمة شاعرة رحيمة حساسة ، يتراحم أفرادها بعضهم على بعض، ويشفق الكبير منهم على الصغير ، ويعطف الغني على الفقير ، ويرحم القوي الضعيف ، ويشعر السليم المعافي بالمريض العاني.. وكان يدعو قلوب المؤمنين أن تتجمل بالرحمة، وتخفض الجناح لكل مسكين عذبته الحاجة وأضناه الفقر، حيث قال:

(لا يرحم الله من لا يرحم الناس)[1]

وقال: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) [2]

في المسند وصحيح الحاكم عن النبي ^ قال : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله عز وجل)

هكذا تبوء هذه القرية أو البقعة أو المنطقة أو البلد بالخسران والضياع، حينما يصبح فيهم هذا الجائع المسكين الذي لم يجد من يشعر به ويأسى لحاله

[1] - البخاري – كتاب التوحيد
[2] - حديث حسن رواه أبو داود والترمذي وأحمد

ويشاركه محنته ، لقد برئت منهم ذمة الله ورسوله حينما تركوه صريع الجوع، يشتهي ولو كسرة من خبز يقيم بها صلبه، ويطفئ بها جوفه المستعر.. وهذا مصير كل أمة تجردت من المشاعر والإحساس تجاه ضعفائها وفقرائها، وياله من مصير مفجع مشؤوم.!

وكان (جعفر بن أبي طالب τ يلقب بأبي المساكين لشدة رأفته بالمساكين وإطعامه لهم، وكانت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) تلقب بأم المساكين لإيثارها ومواساتها، وجاءت أم درة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة، فقالت لها: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحمًا تفطرين عليه! فقالت عائشة: لو كنت ذكرتني لفعلت.

ومن عجائب الآثار ما ذكره القرطبي رحمه الله عن (العدوي) قوله : (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي -ومعي شيء من الماء- وأنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق، فجئته فإذا هو قد مات، عدت إلى هشام فإذا هو قد مات، فعدت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات..!)

وأهدي لرجل مِن أصحاب رسول الله ^ رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا، فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوَّل.!

ولا يظن الإنسان أن ما يُعطيه لإخوانه يذهب هدراً ، ولكن الله تعالى يخلفه له وينميه في الدنيا قبل أن يجازى عليه في الآخرة ، وهذا مثل واقعي لرجل من المحسنين كان يؤثر المساكين المحتاجين على نفسه وأولاده، شعوراً منه بآلامهم وضيقهم.. نسوق هذا المثل حتى نتعلم جميعاً أن الله تعالى لا يترك الخلق هملاً.. فهو تعالى يعوض الباذلين والمنفقين ، ولا يترك المحسنين دون أن يكافئهم في الدنيا والآخرة..!

إنها قصة الشيخ (سليم المسوتي) رحمه الله، التي ذكرها الشيخ علي الطنطاوي في بعض كتبه، وقد كان شيخاً كبيراً ، وكان على فقره (لا يرد سائلا قط، ولطالما لبس الجبة أو (الفروة) التي خلعها يوما ودفعها إلى رجل مسكين رآه يرتجف من البرد، وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفرة من أمام عياله فأعطاها للسائل، وكان يوما في رمضان، وقد وضعت المائدة انتظاراً للمدفع، فجاء سائل يقسم أنه وعياله بلا طعام، فابتغى الشيخ غفلة من امرأته، وفتح له فأعطاه الطعام كله، فلما رأت ذلك امرأته ولولت عليه وصاحت، وأقسمت أنها لا تقعد عنده، وهو ساكت.. فلم تمر نصف ساعة، حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟، وإذا الخبر أن (سعيد باشا شموين) كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام، وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ (سليم المسوتي)، فقال لزوجته: أرأيت يا امرأة؟"

وفرق كبير بين زوجة الشيخ (سليم المسوتي) وزوجة (أبي الدحداح) وذلك لأنها الصحابية، وأنها القدوة، وأنها التي لا مست نور النبوة، وشاهدت من أرسله الله رحمة للعالمين، فلقد سمع زوجها من الرسول ^ وهو يتلو قول الله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)[1] فذهب على إثره ولم يكن يملك إلا مزرعته التي كانت آهلة بالنخيل، وارفة الظلال، عذبة الماء، وبينما زوجته وأطفاله في المزرعة، فيقول لزوجته: اخرجي أنت وأطفالك فقد أنفقت هذه المزرعة في سبيل الله.! فتقول المرأة الصالحة: بخ بخ ! أبشر بالرباح يا أبا الدحداح، وتأتي بالرطب فتخرجها من أفواه أطفالها، فيقول لها أطفالها: مالك يا أماه تخرجين الرطب من أفواهنا ؟ فتقول لهم: إن أباكم قد أنفق هذه في سبيل الله، وإن الرطب أصبح في سبيل الله.!

[1] - آل عمران:92

رسول الإحساس

علمنا رسول الله ^ أن تكون مشاعرنا متقدة وحسنا مرهفاً، وأن نلجم أنفسنا حتى لا يخرج منها ما يجرح النفوس ويؤذي مشاعرها.

تلمس حياته فلن تجدها إلى قمة في الإحساس، وروعة في الحرص على مشاعر الناس، في أقواله وأفعاله، ومواقفه.. انظر دقته في النهى عن التناجي بين اثنين دون ثالث، لأن ذلك من شانه أن يخلق الحزن والغيرة في نفس المسلم، فيفسد المودة ويخلق الجفاء، يقول ^ : "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، ومن أجل أن ذلك يحزنه"[1]

وفى رفع الصوت أكبر إيذاء للمحيطين بك، فالناس يألفون الهدوء والسكينة، والصوت العالي مزعج وقد يصيب بالصداع خاصة مع المرضى والمجهدين. فأين نحن من هذا الأدب النبوي، إن كثيراً من الناس اليوم حينما يقيمون أفراحهم، ترى الضجيج والخبط والإزعاج الذى يضر بالأذن، أو ما يسمونه بالتلوث السمعي الذى يصدر من هذه الفرق الموسيقية التي هي بعيدة عن الفن، ولا تفهم من حديثهم ولو كلمة واحدة، فما تصدر إلا الصخب والضجيج.

يقول المقداد τ ": كنا نرفع للنبي نصيبه من اللبن فيجئ من الليل فيسلم سلاماً لا يوقظ نائماً ويسمع اليقظان فجاء النبي فسلم كما يسلم"[2]

حتى في العطاس حث رسول الله ^ على خفض الصوت حيث قال: "إذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه، وليخفض صوته"[3]

وفي الملبس حرم الإسلام على المسلم لبس الحرير أو الديباج ليحافظ المرء على مشاعر الفقراء والمحتاجين بالامتناع عن ارتداء هذه الملابس الغالية المبهرجة، ولما فيها من الكبر والفخر الذى يقهر نفوسهم، ويذكرهم بفقرهم..

---

[1] - الشيخان
[2] - رواه مسلم
[3] - رواه الحاكم صحيح الإسناد

يقول ^: "لا تلبسوا الحرير أو الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)[1]

ويقول أيضا : "إن الذى يأكل أو يشرب في إناء الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم"[2]

وفى الطعام روعي منه الإحساس إلى أقصى درجة فلا تعيب طعاماً حتى لا تشعر مقدمه بالإحراج وفى الحديث: "ما عاب رسول الله ^ طعاما قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه"[3]

ولا يرفع صوته بجشاء الشبع (التكريع) فيؤذى غيره ففي الحديث: "أن رجلا تجشأ عند النبي ^ فقال كف عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة"[4]

كما لابد من الإحساس بالناس، ومراعاة مشاعرهم في الحياة العامة، في الشارع وفى العمل والمواصلات والحدائق وغير ذلك مما يباشر الناس بعضهم بعضاً فيه.. احرص على أذواقهم، أو أن تأتى بما تستقبحه أعينهم.

فعن أبى هريرة τ أن رسول الله ^ قال: اتقوا اللاعنين، قالوا وما اللاعنان؟ قال: الذى يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم"[5]

وعن جابر τ أن رسول الله ^ نهى أن يبال في الماء الراكد"[6]

بل نراه يأمر بما هو أدق من ذلك، وهو دفن النخامة في طريق الناس حتى لا تؤذيهم هيأتها.. فأي ذوق وأي أدب علمه رسول الله لأمته!

أوصى الإسلام كل مسلم أن يشعر بخادمه أو عامله ومن في معناهما، فلا يكلفه ما لا يطيق من العمل أو ما لا يتحمله ولا يعذبه، ولا يتكبر عليه أو يزدريه،

[1] - أخرجه البخاري ومسلم
[2] - أخرجه مسلم
[3] - أخرجه البخاري ومسلم
[4] - أخرجه الترمذي وابن ماجة
[5] - رواه مسلم
[6] - رواه مسلم

بل يطعمه مما يطعم، ويلبسه مما يلبس، ويعفو عن ذلته، ولا يكثر تعنيفه، بل يحافظ على إحساسه ومشاعره، فلا يفحش له في القول أو يذكر دوماً بالعبودية أو الدونية قال ^ : "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم"[1]

بل منع رسول الله ^ أن يقول أحدهم عبدى أمتي، حتى اللفظ الذى يشعره بالمهانة والنقيصة منعهم من التفوه به فقال: "لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، ولكن ليقل فتاي وفتاتي". وكذلك لم يغفل طعامهم وشرابهم وكسوتهم، فساوى بينهم وبين سادتهم قال ^ : "إذا أتى أحدكم خادمة بطعام فليجلسه وليأكل معه، فإن لم يفعل فليناوله لقمة"[2]

حتى الحيوان فقد أمر الإسلام برحمته ، وحث المسلم أن يطعمه إذا جاع، ويسقيه إذا ظمأ، ويرفع عنه الحمول إذا تعب، ويداويه إذا مرض، وفى سيرة الرسول ^ وصحابته الكرام ما يبين للمسلم شفقتهم وإنسانيتهم الرائعة العالية، والتي ترأف بالحيوان، وتحوطه بالرحمة. فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ^ مر عليه حمار قد وسم فى وجهه فقال: "لعن الله الذى وسمه"[3]

ولما عميت (الشهباء) بغلة الرسول وسقطت أسنانها، كان يفت لها الشعير إنه احترام لمعنى الحياة حتى ولو كانت لبغلة عمياء!

وعن ابن عمر أن رسول الله ^ قال عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض"[4]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنا مع النبي ^ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش فجاء النبي ^ فقال: "من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها"[1]

[1] - متفق عليه
[2] - صحيح أخرجه ابن ماجة
[3] - رواه مسلم
[4] - متفق عليه

الإنسانية فوق كل شيء

الإيمان بالإنسانية صورة راقية من صور المروءة والخلق النبيل، فهي في نظر العقلاء والأكياس فوق كل شيء، ومن يقدرونها ويعظمون مكانتها أناس متحضرون، وقمم سامقة تعتز بهم الدنيا، ويزين وجودهم عالم البشر، الذي أوشك أن تنعدم فيه معنى الإنسانية.

إنهم يعظمونها في صدورهم، ويرون لها مكانة عالية في نفوسهم، ويؤمنون إيمانًا جازمًا ويؤكدون أنها لا دخل لها ولا ترتبط ألبته، بما يعترض الانسان كل يوم من حوادث العداء والخصام والبغض والتحدي والمنافسة والصراع بينه وبين غيره من بني البشر، عادِي إذن من شئت، وخاصم من شئت، ونافس من شئت، ولتبغض حتى من شئت، لكن تبقى الإنسانية هي الإنسانية، قائمة شامخة عظيمة تحتل مكانتها من نفسك، ومساحتها من قلبك، فمهما جار عليك الناس، ومهما ظلمك الظالمون، لا يجوز أبدًا أن تنسى إنسانيتك، وتعامل بها كل من حولك، حتى الذين آذوك وأساؤوا إليك.

كثير ما أختلف مع بعض الأشخاص الذين يباينون فكري وتوجهي ومسلماتي وإيماني، وقد لا أخفيك معترفًا أن هذا الخلاف أو الاختلاف، قد يقود أحيانًا للكره والبغض، لكنني لا يسعني إلا أن أنحني لهم حينما أدرك تقديسهم للإنسانية، ويبلغني عنهم موقفًا أعلوا فيه من معانيها وقيمها، طارحين خلف ظهورهم ما تلمسوه من عداء وبغض وخصام.

بل لا أرى حرجًا لو خرجت على الدنيا كلها لأكتب عنهم بقلمي، وأشيد بأخلاقهم وأدبهم ورحمتهم وسموهم، حينما علمونا معنى الشرف، ومعنى المروءة، ومعنى الرجولة الحقيقية.

والحق أن الدكتور (طه حسين) يُعجبني كثيرًا في هذا الميدان، ولا نخالف الحقيقة لو قلنا: إن الرجل كان إنسانًا بكل المقاييس، وبكل ما تحمله هذه الكلمة

[1] - صحيح رواه أبو داوود

من معان، كان يبسط يده بالبر والخير لكل الناس وأولهم أعداءه وخصومه! كان دائمًا ما يثبت حضوره في قائمة المروءة، ولائحة الإنسانية، ليكون أول الأسماء البارزة فيها، والحريصة أن تنال شرفها وسؤددها.

ربما أتيح للرجل أن يتشفى في خصومه، أو أن ينتقم منهم، لكنه أبدًا كان عاليًا راقيًا سمحًا شهمًا عظيمًا رجلاً.

أرأيت ما فعله فيه الرافعي، وكيف كال له السباب والقذف العنيف فيما جرى بينهما من معارك أدبية؟ أرأيت ما سجله عليه في كتابه (تحت راية القرآن)؟ إن كنت لا تدري.. فاذهب هناك لترى كيف سلخه وجزره، هل تتوقع بعد ما تعرفه من هذا السباب، أن يكون في قلب طه حسين، بعض لطف أو بصيص من رقة تجاه الرافعي؟ ذلك الرجل الحاد العنيف لقد رماه بالسفه والحماقة وتخلف الذهن والإلحاد والتحذلق والجهل والكفر والاستهزاء بالأديان، وغير ذلك من التهم العتية التي مازالت تحفظها كتبه.

وأمام هذا كله، يبتسم طه ولا يغضب، بل حدث ما هو أروع وأعجب، مما يدلل على سمو الرجل وسماحة نفسه، فحينما انتقل الرافعي لرحمة الله، كان طه وقتها عميدًا لكلية الآداب، وكانت إحدى بنات الرافعي طالبة بهذه الكلية، وعجزت عن دفع المصروفات، فعرف طه حسين ذلك، وطلب من اللجنة المختصة أن تمنح بنت الرافعي المجانية، وأنه على استعداد لدفع المصروفات من جيبه الخاص.! فعل هذا، رغم شراسة أبيها وعدوانه عليه.!

ثم انظر لهذا الرافعي المقاتل حينما مات ورحل عن الحياة، وقد خلف وراءه كثيرًا من العداءات والخصوم، لقد اهتزت بلدان الإسلام كلها لموته، لكن خصومه الكُثر لم يتقدم منهم أحد بكلمة عزاء لأهله، إلا رجلا واحدًا هو الدكتور طه حسين أشد خصوم الرافعي نبلا وشهامة.

لقد تعود طه منذ صغره، أن لا يعدم أولئك الذين يوخزونه في مشاعره، ولكنه أمام هذا الوخز كان جبلا شاهقا، فلم تحقد نفسه ولم يمتلئ قلبه بالكره والبغض للبشر.

سافر طه حسين إلى الأزهر كي ينهل من العلم ويحقق أمنية أبيه فيه.. ذلك الأب الذي يستبشر في غلامه أملاً كبيرًا ومستقبلا واعدًا.

ورحل الغلام الصغير في صحبة أخيه الشيخ أحمد، يسكن معه في غرفة واحدة، وظن طه أن أخيه سيكون أنيس أخيه في وحدته، وأن أخاه سيكون أنيسه في ظلمته.. ولكن عذابه تضاعف، فقد أضيف لعذاب ظلامه عذاب الوحدة، حينما كان أخوه يتركه في غرفته بعد درس الظهر ليقضي الوقت مع أصحابه في مرح ومدارسة، يشربون الشاي ويتندرون بالأحاديث والملح المسلية.. كان الفتى يتوق إلى مجالسهم وتتوق روحه إلى تناول الشاي الذي يشربونه، وكان لا يستطيع أن يطلب من أخيه أن يصحبه إلى حيث يذهبون ليسري عن نفسه التي تغط في الالام، كان يخشى أن يطلب ذلك من أخيه حتى لا يرده بعنف ويرفض طلبه، ولم يكن أمامه إلا أن يكبت رغباته في نفسه المتصلة بالهموم، كان شديد الإحساس على أخيه كما كان شديد الاحساس منه، كان يتركه هكذا هملا دون أنيس أو جليس، لا يشعر به ولا يحس بألآمه وهو مازال الصبي الصغير الذي يهوى اللعب والأنس، وكان يعطيه في الليل عشاءه رغيف وقطعة جبن يضعه أمامه وينصرف عنه إلى الازهر لدرس الأستاذ وكان الصبي يقلل على طعامه حينما يأكل أخوه معه، وكان ينهي على طعامه حينما يتركه وحده، ففي الأولى لم يطرق إلى ذهن أخيه أن يسأله: لماذا أكلتك قليلة ولقمتك ضئيلة؟ وفي الحالة الثانية فإن طه كان ينسف الطعام كله، حتى لا يعود أخاه فيظن به المرض أو الحزن، وكان أبغض شيء إلى نفسه أن يثير في نفس أخيه هما أو قلقا، وفي ليلة من الليالي هم أخوه الأكبر أن يذهب سامرًا مع أصدقائه فهيأ أخاه لنومه وانصرف عنه، فلم يكد يبلغ الباب حتى تغلب الحزن على نفس الصبي فأجهش بالبكاء الذي كتمه ما استطاع في نفسه.

ولك أن تتأمل كل هذه الاحاسيس المجروحة في نفس هذا الغلام الذي لا يجد من يشعر به أو يحس بآلامه، فهي صورة تستدعي الأسى والرقة لحاله، ولكنك لا تدرك ولا هو أيضًا كان يدرك أنه سيتعرض لأكثر من هذا وأشد إيلامًا!. سيتعرض لما يفتك بأحاسيسه فتكًا، فقد صور في كتابه الأيام، أن كل هذا الذي وجده من إهماله أخيه له وحرمانه من صحبته، لم يكن ليمثل شيئًا أمام هذه الكلمات التي نزلت عليه كالصاعقة وهو ذاهب لامتحان القيد بالأزهر، وحينما نادى عليه ذلك الشيخ العتي الجبار الذي لا يراعي حرمة للإحساس ولا خاطرا للمشاعر، خاصة وأنها مشاعر صبي قد تبلغ منه درجة القسوة مبلغا لا يحتمله، ولعلها أن تكون ذلة لسان من هذا الشيخ أو خطأ في النداء لا يقصده ولكنه بغشم مفرط يصر عليها حينما أراد أن يُثني عليه فقال له: فتح الله عليك يا أعمى.!

حلوى الشيخ

وفي (وحي القلم) الذي صنفه أديب الإسلام (مصطفي صادق الرافعي) قصة بليغة تذكرنا بإنسانية أسلافنا العظام، وما كانوا عليه من إيثار ورحمة وشعور بالآخرين، فقد (أعطى الشيخ (عبد اللطيف البغدادي) درسًا في مدينة (بلخ) في العراق، وقال للحضور: سأروي لكم قصة رؤيا رأيتها في ذات يوم، يقول الشيخ: في ذات مرةٍ اشتدَّ الفقر بي ولم أجد طعامًا في بيتي، وكان بكاء طفلي وجوع زوجتي يؤلمني، حتى كأني جائع بثلاثةِ بطونٍ خاوية، وفكرتُ أن أبيع داري، فانطلقتُ فقابلني (أبو نصر الصياد) فقال لي: إلى أين أنت ذاهب؟، فحكيت له حكايتي وعزمي على بيع بيتي، فقال لي (أبو نصر الصياد): خذْ هذه الحلوى (بركة الشيخ) وأطعمها لعيالك، فقلت له وما بركة الشيخ؟ قال لي أبو نصر الصياد: لقد خرجت من بيتي بعد الظهر وليس في بيتي طعام، فقابلني الشيخ (بشر الحافي) فسألني: ما أخرجك في هذا الوقت؟ قلت الحاجة، فقال لي هاتِ شبكتك وتعالَ معي، فأخذتُ الشبكة وذهبنا إلى النهر فأمرني بالوضوء والصلاة، ثم قال لي: ارمِ شبكتك وظلَّ هو يصلي، وبعد برهة من

الزمن وجدتُ الشبكةَ قد ثقلت، فحاولتُ جذبها فلم أستطع، فاستغثتُ بالشيخ فخرجت سمكة عظيمة، فأخرجناها معًا ثم قال لي :خذها وانتفع بثمنها، فأخذتها وبعتها واشتريتُ لأولادي طعامًا وشرابًا.. وبينما أنا في فرحتي مع أهلي تذكرتُ الشيخ وفضله عليَّ فقلتُ: لأهدينه قطعةً من الحلوى، وذهبتُ إليه وطرقتُ عليه الباب فلمَّا أدخلني قلت له: يا فضيلة الشيخ.. تذكرتُ فضلك عليَّ فجئتك بهذه الحلوى هديةً لك، فقال لي الشيخ: خذ الحلوى؛ فلو أطعمنا أنفسنا هذه ما خرجت السمكة.

فأخذ (عبد اللطيف البغدادي) الحلوى من (أبي نصر الصياد) وانطلق عائدًا إلى بيته، فبينما هو عائدٌ قابلته امرأة ومعها طفلٌ صغيرٌ فقالت المرأة: يا شيخ.. أطعم ابني هذا شيئًا؛ فإنه يتيم وجائع.

يقول (عبد اللطيف البغدادي): فأنستني نظراتُ اليتم في عيني الولد.. زوجتي وابني فأعطيتُه الحلوى ورأيتُ الفرحَ في وجه الطفل، ودموع الفرح في عين أمه، وأسعدني هذا وشغلني عمن في داري، وذهبتُ إلى شاطئ النهر أتدبر حالي وأُفكِّر في أمري، وبعد قليلٍ من الزمن جاءني (أبو نصر الصياد) وهو في فرحٍ شديدٍ وقال لي: أبشرْ يا عبد اللطيف أبشر ، فقد امتلأ بيتك خيرًا، قلت: كيف؟ قال: لقد ذهبتُ لأستدين لك، وبينما أنا ذاهبٌ إلى بيتك قابلني رجل يسأل عن أبيك فقلت له: لِمَ؟ قال: لقد أعطاه أبوك مالاً منذ ثلاثين عامًا، وجاء الرجل ليسد أصل المال وربحه وهدايا كثيرة فدللته على بيتك.

يقول (عبد اللطيف البغدادي): فقلتُ: يا سبحان الله.. إن أبي مات منذ عشر سنوات، وهو كان مغمورًا في حياته، فكيف بعد مماته، ولولا أن قابل التاجر أبا نصر الصياد، لما وصل إلى داري، ورجعتُ إلى داري فوجدتها قد مُلئت خيرًا، ووجدتُ خيرًا ومالاً كثيرًا، وتذكرتُ أم اليتيم وطفلها، فأقسمتُ أن أكفلها طيلةَ حياتي، وتذكرتُ الفقراء والمساكين فكنتُ أتصدق عليهم وأُحسن لهم.

وفي ذات يوم رأيتُ في المنام وكأنَّ القيامةَ قد قامت، وأنه قد نُصب الميزان ووضعت سيئاتي في كفة وحسناتي في كفةٍ أخرى ،فوجدتُ سيئاتي وكأنها

جبال تهامة، وحسناتي وكأنها لفافة قطن، وطاش الميزان وثقلت كفة السيئات، حتى أيقنتُ أني هلكتُ ونادى منادٍ: هاتوا بحسناته؛ فما من حسنةٍ يضعونها إلا ووراءها شهوة خفيفة أو حب لظهور أو استشراف مدح ، فلا تكاد تُثقل الميزان، ثم قال قائلٌ: أولم يبقَ له من حسنةٍ؟!.

قال آخر: بلى.. حسنة قطعة الحلوى للطفل اليتيم ، فجاءوا بها فأخذ أبو نصر الصياد نصف ثوابها، ولكنها ثقَّلت الميزان، ولكن لا تزال كفة السيئات راجحة فأيقنتُ أني هلكت، فقال قائل: أوليس له من حسنةٍ؟ قال آخر: بلى.. دموع الفرحة في عيني أم اليتيم، فجاءوا بها فوضعوها في كفة الميزان، ففارت الدموع ثم فارت ثم نزلت على الأرض فصارت لجةً- أي بحر صغير- ثم خرجت منها سمكة عظيمة ثقَّلت ميزانَ الحسنات، فاستيقظتُ وأنا أصيح: "لو أطعمنا أنفسنا ما خرجت السمكة".

لقد هامت نفسي في هذه القصة المؤثرة وأعجبني فيها كيف كان أسلافنا أصحاب قلوب حية نبيلة، استطاعت أن تبلغ بهم لأعلى مراتب الإنسانية.. رأيت في هذه القصة المؤثرة كيف عوض الله تعالى هذا المحسن الكريم، الذي آثر اليتيم وأمه الأرملة على زوجته وطفله الذي يبكي في البيت من خواء بطنه؟ وتعلمت منها أن الله تعالى يكافئ المحسن بما لا قبل له به، وأن الإنسان حينما يترك شيئا لله، فإن الله تعالى يعوضه بأكثر مما ترك ، لأنه الكبير الكريم.

العبادة إحساس

من جميل الإسلام وأدبه في ميدان العبادة، أن يراعي المسلم سواءً كان مأموماً أو إماماً، شعور من وراءه من إخوانه المصلين ويحس بهم، فهذا الإمام يدرك حالة من يصلى وراءه فلا يطيل في صلاته وليخفف بهم، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة، قال ^ لمعاذٍ τ: "أفتان أنت يا معاذ، من أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة".

وفى إمامته ^ يدرك الشعور بمن وراءه والإحساس بهم: "إني لأقوم إلى الصلاة، وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه"[1]

وعلى المصلى في المسجد أن يراعى المصلين حوله، فلا يؤذيهم حينما يذهب للمسجد وقد أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً، وما من شأنه أن يبعث برائحة كريهة يقول : "من أكل البصل أو الثوم والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم"[2]

ولا يرفع المأموم صوته عالياً، فيؤذى من يصلى معه فقد كان النبى ^ معتكفاً فسمع صوتاً عالياً من المصلين فقال: "ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة"[3]

وفى حالة الخطابة والوعظ، لا يطيل الواعظ إطالة تشق وتزعج المستمعين، فتحدث لديهم حالةً من الفتور والملل، فيضر ذلك بالموعظة.

كان ابن مسعود τ يذكرنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أنى أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ^ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا"[4]

و في الزكاة والصدقات، يقدمها المسلم للفقير وذا الحاجة دون جرح إحساسه، وبلا منّ أو أذى.

قال تعالى: "الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[5]

[1] - رواه البخاري
[2] - رواه مسلم
[3] - صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم
[4] - أخرجه البخاري ومسلم
[5] - البقرة: 262

كما يجدر به أن يُعطيها في السر، ففي الحديث من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: "رجل تصدق بصدقة حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه"[1]

ويقول تعالى: "قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنى حليم"[2]

"يقرر الحق تعالى أن الصدقة التي يتبعها أذى لا ضرورة لها! وأولى منها كلمة طيبة، وشعور سمح، كلمة طيبة تضمد جراح القلوب، وتفعمها بالرضى والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة فالقول المعروف والمغفرة في هذه الحالة يؤديان الوظيفة من تهذيب النفوس وتأليف القلوب ولأن الصدقة ليست تفضلاً من المانح على الآخذ، إنما هي قرض لله، عقب على هذا بقوله: "والله غنى حليم"[3]

ويقول تعالى: "أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساعون، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون"[4]

السورة القرآنية الكريمة اعتبرت دع اليتيم ونهره مساوياً للتكذيب بالدين والدع هو جرح الكرامة الإنسانية في شخص اليتيم المحتاج، الذى جاء يسأل.

لهذا الحد زلزل الله تعالى الدنيا بهذه الآيات المباركة، من يجرحون مشاعر المساكين والمحتاجين ولا يقضون حوائجهم، وما قيمة الصلاة هنا حينما تكون نفس المصلى بهذا التجني والتجريح، إنهم يؤدون الصلاة بأجسادهم ولكن قلوبهم لا رحمة فيها.

[1] - الصحيحان
[2] - البقرة: 263
[3] - تفسير الظلال
[4] - سورة الماعون

فإذا انطلقت لهذا فلتحفظ مشاعر الخلق، وتراعي إحساسهم ونفوسهم المنكسرة التي تحتاج من يترقق لها، ويربت على قلوبها.

التقى عابر سبيل بالحسن بن على رضى الله عنهما، فدفع الرجل إليه رقعة، فما كان من الحسن، وقبل أن يقرأها: قضيت حاجتك! فقيل له: كيف وأنت لم تقرأها؟ قال: خشيت أن يسألني الله عز وجل، عن ذل وقوفه بين يدى حتى أقرأ حاجته.

وفى الصيام.. ارفق بالصائم، ولا تعرضه لما يضعف عزيمته، فتأكل أمامه أو تعرض له من الطعام ما تشتهيه نفسه.. هذه بعض صور العبادات التي تراعى فيها شعور إخوانك وتراعى إحساسهم، وهناك غيرها كثير مما يعطى صورة الإسلام القوية في احترام النفوس وإكرام مشاعرها.

الإحساس عمل

لا تظن أننا حينما نطالبك أن تكون حساسًا بمشاعرك تجاه الآخرين، أن تكتفي بهذا الإحساس وحده فيحزن قلبك وتئن نفسك، وتبادرك للمبالغة في التعبير عن المأساة فتمصمص بشفاتك تعبيرًا عن شعورك وأساك، وتعاطفك الغائر بالمصاب.

فالإحساس الذي لا يحرك صاحبه للعمل والنجدة وإنقاذ المبتلين ولو بالكلمة، إحساس زائف، وعمل المتبلدين، وهو تمامًا كهؤلاء الذين يكتفون من الإيمان بقولهم: آمنا، أما أفعالهم فلا يحركها هذا الإيمان ولا تدل عليه.

لقد رأى موسى عليه السلام حال المرأتين، وأحس بمحنتهما، لكنه لم يكتف بالأسف وشعوره بالضيق، ويحمد في نفسه هذه المشاعر التي يمكن أن تخدع ضميره ليرضى عن نفسه، فيظل مكانه بلا حركة ولا موقف، لكن سارع لمعاني الرضا الحقيقية، حينما تحرك بصورة عملية لرفع هذا البلاء والسقي

للمرأتين الضعيفتين، اللتان لم يزاحما الرجال، ولم يكن لديهما القدرة على رفع غطاء لا يقوى عليه إلا عدد من الأشداء.

يقول تعالى:(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) [1]

وللشاعر الكبير أحمد شفيع، قصيدة طويلة تحت عنوان (عبيد المال) نظمها في مجلس واحد، كانت هذه القصيدة نتاج حادثة سمعها من غلام شاب من طلبة المدارس، والده تاجر من كبار الأغنياء، يسكن مع الأستاذ في شارع واحد ويتزاوران، فقال الغلام في حياء خجول: لقد جئت إليك يا سيدي لأشكو والدي، إذ ذهبت إليه ساعة غروب الشمس في شهر رمضان، راجياً أن أتناول عنده الإفطار، ولكنه - وهو متزوج بغير والدتي - نهرني وطردني، وقال لي: اذهب لأمك فهي تأخذ النفقة الشهرية ثلاثة جنيهات!

سمع الأستاذ القصة فكاد يبكي، وقال في حسرة: غلام يأتي إلى أبيه جائعاً في شهر رمضان فيحرمه!! ثم صحبه الأستاذ شفيع إلى منزل والده، فلما خرج والد الفتى قال له: يا فلان، من الغد إذا ذهبت إلى السوق تشتري الطماطم، فاطلب من البائع واحدة بعد الميزان، ثم اطلب من الكوسة واحدة أخرى بعد الميزان، فإذا ذهبت إلى المنزل ضع كوباً من الماء زيادة في القدر الذي يطبخ فيه الخضار، وحين يجيء ولدك المسكين، فقدم له طبقاً لم يكلفك شيئاً، لأن محتوياته جميعها من غيرك، ولا عليك من ثمن الرغيف فسأعطيه إياه!! قال الشيخ هذه الأطروفة في لهجة المتألم ، وقد حزت في نفسي، وكدت أصيح من الألم، ثم تركه شفيع دون أن يأخذ تحية الضيافة .

وفي الغد كتب الشيخ الجليل قصيدة في سويعة يسيرة، جعلها ذمًا لعبيد المال بوجه عام، دون أن يتعرض للبخيل المشؤوم، إذ ليس من أخلاقه أن يخص

[1] - القصص :23-24

أحداً بالهجاء مهما كان نذلاً وضيعاً، وقد نشرت القصيدة بمجلة الأزهر، وفيها يقول:

لمن المال تجمعون وأنتم ** في حياة قد أذنت بالزوال

كم نصبتم حبائل المكر للما ** ل وغالبتمو شديد المحال

رازق الذر في مساربه الجو ** ن ومجري الأنهار بين الجبال

ومنجي الظباء من ربقة الأسر** ومردي الآساد في الأدغال

لم يساو الإنسان في رشده الوحش** فأضحى للمال في أوجال

أضعاف الطيور أهدأ بالاً** وسراة الأنام في بلبال

كم غبي وعاجز مجدود** غمرته الحياة بالأنفال

وذكي وحول محدود** ناء فيها بأفدح الأثقال

حكمة لا تحار فيها عقول** غير عقل عن الهدى في عقال.

لاحظ هنا أن الشيخ لم يكتف بقلمه فقط، حينما كتب قصيدة عبرت عن أسا قلبه، حتى يشعر براحة ضميره، وأنه قد أدى دوره تجاه المحنة والأزمة، وأنه فعلا قدم مواساته لهذا الشاب الشاكي الحزين، وتلك ظنون العاجزين.

لكن الرجل تحرك بشهامة الفارس، وإلى أرض الواقع، ليزيل الجور ويرد الحق ويبصر، الغافل، وينبه الظالم، ويطالب بالواجب، ويدعم الخلق ويرد عنت النفوس، وتلك هي أخلاق من يشعرون، فمن يكتفي فقط بالكلمات، يوهم نفسه، ويخدع ضميره، وإنما لابد من الحركة ترضي الضمير بموقف عملي.

ولعل الموقف يذكرني ببعض شيوخ الدين، الذي كان يؤلف الكتب، وكلما كلمه أحدهم عن دوره في الانتصار للإسلام، يشير إلى كتبه ويقول: انظروا لهذه الكتب التي فاقت الخمسين والستين كتابًا، كلها في خدمة الإسلام، وإذا ما تركنا

برجه العاجي، ومحرابه الذي يكتب فيه، لعلمنا أن هناك من هو أقل منه في العلم، ولم يكتبوا صفحة واحدة من كتاب يحمل أسماءهم، نزلوا لأرض الواقع وأخذوا يخدمون الإسلام بصورة عملية مرئية ملموسة مشهودة، غير مكتوبة ولا مسموعة، انخرطوا في دنيا الناس، فساعدوا الفقير وواسوا المسكين، وردوا المظالم، وأحدثوا أعمال الخير والبر، ودلوا الناس بكثير من المواقف على الأخلاق الحسنة الكريمة، فكانوا قدوة مضيئة لهم على الطريق.

كان الشيخ شفيع رحمه الله كما وصفه الدكتور البيومي في أعلام النهضة: "لا يدخر شيئاً من عائده، وجميع أصدقائه يعرفون أنه هذا الباب مثل بارع من أمثال الفتوة الإسلامية، التي نقرأ بعض آثارها المجيدة في كتب السالفين، إذ كان يفرح بالفقير الوافد على منزله فرحاً لا يوصف، وكنت أزوره بعد صلاة العشاء، فأجد الثلاثة والأربعة من ضعفاء الحال يؤمون ساحة من القرى النائية لقضاء مصالحهم في القاهرة، اعتماداً على سخاء نفسه، وبسطة يده، وهو لا يكتفي بالمسعى في حوائجهم لدى الوزارات المختلفة، بل يفسح لهم من منزله مأكلا ومشرباً ونوماً، وربما دفع لذوي الفاقة منهم ما يقوم بنفقات القطار أو السيارة في الرواح والذهاب تقديراً لظروفهم العسيرة .

وإن بشاشته عند اللقاء، وهشاشته في السّمر والإضحاك، وأنسه بالغريب الوافد، لمما يشجع الطارقين على تكرار الزيارة بعزم وإقدام، علماً بما سيستقبلون به من الاحتفاء، وقد كان يكرر لهم التحية أكثر من مرة في المجلس الواحد! .

على أن المفارقة في هذا الباب أن زاره ذات مساء فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون، المصلح الديني الكبير، والكاتب الاجتماعي الأشهر، وهو يومئذ سكرتير المجلس الأعلى للأزهر، فقدم إليه ـ وكنت حاضراً ـ فنجان القهوة فحسب، فتعجبت كثيراً، وقلت : يا سبحان الله، يأتي من هب ودب من الناس فيتمتعون بلذيذ الفواكه، وهنيء المشارب ، ويأتي أبو العيون فيشرب القهوة وحدها، فأجابني الأستاذ أحمد شفيع إجابة تمر الليالي دون أن

أنساها، قال الأستاذ في بساطة: الشيخ أبو العيون ضيفي أنا، وهو غير محروم، ففي منزله العامر أضعاف ما في منزلي، أما هؤلاء فضيوف الله، ويفرحون بما يطعمون ويشربون! .

فمن مُبلّغ مؤلفي كتب المكارم في العصور السالفة، أن لدينا من هذه الأريحيات النبيلة أمثلة صادقة تدل على أن مكارم الأخلاق إرث باقٍ لورثة الأنبياء"

قلوب شاعرة

مبلغ عظيم هذا الذى وصل إليه المسلمون قديما، من إحساس بعضهم ببعض، وتألمهم لآلام بعض، لا يكاد الإنسان يصدق ما ورد عنهم من الآثار، حتى يحكم أنها من قبيل الأساطير من فرط ما فيها من معاني الأخوة السامية المذهلة.

دخلوا يومًا على الزاهد المعروف –بشر الحافي- رحمه الله، وهو ينتفض من البرد وقد وضع عنه ثوبه، فسألوه لماذا هذا الحال فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس عندي ما أواسيهم به، فأحببت أن أواسيهم في بردهم.

وهذا أبو حنيفة يرى رجلاً يمشى معه حافياً، فإذا به يخلع نعله، فلما سأله الرجل عن فعل ذلك قال: (لأساويك في الحفاء).

وهذا عمرو بن العاص في فتح مصر حينما نزلت حمامة بفسطاطه (أي خيمته) فاتخذت من أعلاه عشاً، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه الفسطاط، فتركه وتكاثر المران من حوله فكانت مدينة الفسطاط.

وكان أبو إسحاق الشيرازي يمشى في الطريق، ومعه صاحب له، فعرض له كلب فزجره، فنهاه الشيخ وقال له: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟!.

وبلغ من تمكن هذا الشعور من الشيخ رشيد رضا –رحمه الله- أن كانت أمه إذا رأته حزيناً تقول له: مالك يا بنى؟ أمات اليوم مسلمٌ في الصين؟! لأنها تعلم عنه متابعته واهتمامه بأحوال المسلمين في الشرق والغرب والتفكير في شئونهم.

روى الحاكم في المستدرك: أن معاوية بعث بثمانين ألف درهم إلى عائشة – رضى الله عنها- وكانت صائمة، وعليها ثوب خرق، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين، ولم يتبق منه شيئاً فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين أما استطعت أن تبقى لنا درهمين نشترى بهما لحماً نفطر عليه؟ فقالت" يا بنية لو ذكرتني لفعلت".

والشاهد هنا ليس في إنفاقها وتصدقها –رضى الله عنها- وإنما لأنها نسيت نفسها وحالها، وشغلت بحال المسلمين وفقرهم، لم تفكر في نفسها وبيتها وجوعها وصومها، فقد سيطر عليها أن تقيل عثرة المحتاجين.

وفى خلافة الفاروق τ كانت مجاعة وسنة مجدبة وهى ما عرفت بعام الرمادة، اشتد الكرب فيها على المسلمين فأقبلوا على عمر يقولون: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، وإن الأرض لم تنبت وقد أدركنا الهلاك فما الصنيع؟!

فاهتم لهم عمر وقال: اصبروا واحتسبوا فإني أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم، وفى آخر النهار، وردت الأخبار بأن عيراً لعثمان بن عفان τ جاءت من الشام وستصل في الصباح إلى المدينة وهم الناس يستقبلون العير بشغف وتطلع، كما انطلق التجار يتلقونها وكانت ألف بعير قد حملت قمحاً وزيتاً وزبيباً، وأناخت العير ببيت عثمان ودخل التجار عليه وقالوا: بعنا ما وصل إليك، فقال: كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: نعطيك بالدرهم درهمين.

قال: هناك من أعطاني أكثر من هذا، فزادوا له فقال: أعطيت أكثر مما زدتموني، فزادوا له، فقال: أعطيت أكثر من هذا، فقالوا: يا أبا عمرو، ليس في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد، فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا؟! فقال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، فهل عندكم زيادة؟ قالوا: لا يا أبا

عمرو، فقال: إني أشهد الله تعالى أنى جعلت ما حملت هذه العير، صدقة على فقراء المسلمين، لا أبتغى من أحد درهما ولا دينارً وإنما ثواب الله ورضاه.

رحمك الله يا خليفة رسول الله، أي إنسان كان عثمان τ وأي نفس كان يحمل بين جنبيه، سخاء لا حدود له، وكرم لا نهاية له.

لم يلتفت لمصالحة، ونماء تجارته، والمال الوفير من زيادات التجار، فجوع المسلمين عنده بدد كل تفكير في مصلحته.

واسمع لما يرويه البخاري من وصف أبى هريرة τ لكرم جعفر بن أبي طالب τ ..قال: (كان خير الناس للمساكين، فكان يتقلب بنا فيطعمنا ما في بيته، حتى إنه ليخرج إلينا العكة (القصعة) التي ليس فيها شيء فنلعق ما فيها)، أي إنه يخرج ما يجده ولا يمنعه.

لم يصفه أبو هريرة بالبطولة أو القوة والجسارة، أو خفة الظل وبلاغة الحديث وعذوبته.

وإنما وصفه بأنه: (كان خير الناس للمساكين) فاحرص على ود المساكين والقرب منهم والعطف عليهم، شاركهم في الطعام والشراب، وضع اللقمة في فم أحدهم لتجد طعمها في فيك.

يقول أبو سليمان الداراني: (إني لأضع اللقمة في فم أخٍ من إخواني فأجد طعمها في حلقي. عجباً كيف يبكى صلاح الدين ؟!

من شرد الغزاة، وهزم الصليبيين ،وأعاد المجد والكرامة للمسلمين.. نعم، لقد بكى يوماً فهل تعلم لماذا؟

حينما اشتدت الحرب مع الصليبيين، حدث أن امرأة منهم فقدت طفلها الرضيع، ولم تقف له على أثر، فباتت بشر حال، تدعو بالويل والثبور طوال الليل، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا لها: إن صلاح الدين رجل عاقل رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج إليه ولقائه، وطلب مساعدته حتى يرد

إليك طفلك، فخرجت حتى وصلت إلى الحرس واستغاثت بهم، مما نزل بها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فلقيته وهو راكب، وفى خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً، واستغاثت به، ولما علم بقصتها غضب غضباً شديداً، ورق لها ودمعت عيناه، ثم أقر بالبحث عن ولدها وإحضاره إليه حتى يسلمه لها، فظهر أنه قد أُخذ في غارة من الغارات، وأنه بيع في السوق كما يباع الرقيق، فأمر باسترداده ممن اشتراه، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وتسلمته أمه الوالهة الباكية، فأرضعته ساعة، ثم أمر السلطان فحملت على فرس إلى معسكر قومها مع طفلها).

صلاح الدين صاحب القلب الجبار، والمعارك الضخمة، يبكى رقة وشفقة لحرقة المرأة على ولدها الرضيع، المرأة التي ليست من المسلمين وإنما من الصليبيين، ما أعظم شعوره بالمعذبين، وألمه للمتألمين، يا ليت كل حاكم يصيبه هذا الشعور ليصير مثل صلاح الدين، يبكى لحال الناس، لحال الرعية الضعيفة...لحال المظلومين والمكلومين، ساعتها يسود الخير والعدل.

ما أروعك يا عمر

قال عمر τ يوما لعبد الرحمن بن عوف τ حينما طلب منه أن يلين للناس: "والله لو يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة، لأخذوا ثوبي عن عاتقي"[1] أي لجذبوا ثوبي انبساطاً وملاطفة.

وفى عام المجاعة كان يباشر بنفسه توزيع الطعام على المحتاجين، وفى ذات مرة وهو يطوف على موائدهم رأى رجلاً يأكل بشماله فقال له: يا عبد الله كل بيمينك، فقال له الرجل: يا عبد الله إنها مشغولة، فقال عمر وما شغلها؟ قال: أصيبت يوم مؤتة (أي في غزوة مؤتة) فتأثر عمر وبكى، وجعل يقول له من

[1] - المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري

يوضئك؟ من يغسل رأسك وثيابك؟ من يصنع كذا وكذا ؟ ثم عين له خادماً وأمر له براحلة وفرض له طعاماً وما يصلحه ويقوم بحاجته)[1]

وفي نفس العام ألزم نفسه أن يعيش على الزيت كعامة أفراد الرعية، حتى هزل بدنه، وتغير لونه، قال واصفوه من المؤرخين: (وكان أبيض يعلوه حمرة) وإنما سار في لونه سمرة في عام الرمادة، لأنه أكثر من أكل الزيت وترك السمن، للغلاء الذى نزل بالناس، فامتنع من أكل اللبن والسمن حتى لا يتميز على الضعفة أي فقراء الرعية!

وقد أرسل لولاته في العراق ومصر والشام، أن يرسلوا إليه معونات من الأغذية لإنقاذ إخوانهم في المدينة، وقد أعد للناس موائد عامة في عام الرمادة، وحدد الكمية التي تقدم لكل فرد، وكان يشرف بنفسه على إطعام الناس في هذه الموائد!

كما كان τ يتفقد أحوال الرعية بنفسه، ليسمع أنات المكروبين، ويتجول في الطرقات ليلاً ليطمئن على أحوال الناس، ويعالج قضاياهم، وعندما سمع صوت امرأة تنشد – في ظلام الليل- تشكو فيه ألم الفراق، وتعبر عن شدة شوقها إلى زوجها الغائب في الجهاد، سأل ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها: كم تصبر المرأة على فراق زوجها؟ ثم أصدر قراره بألا يتغيب الجندي عن زوجه أكثر من أربعة أشهر.

وعندما سمع صراخ رضيع في ظلام الليل وعرف أن أمه فطمته قبل فوات الأوان ليسجل اسمه في سجلات العطاء، لأن أمير المؤمنين لا يسجل الرضع في هذه الكشوف تأثر بهذا الأمر ورأى في ذلك ظلماً لأطفال المسلمين، وأصدر أمره بأن يدرج في هذه السجلات كل مولود.

وعندما رأى يهودياً كبير السن يسأل الناس المعونة سأله ما أحوجك إلى هذا؟ قال: السن والحاجة والجزية، قال له معتذرا- ما أنصفناك، أكلنا شبيبتك

[1] - الآثار لمحمد بن الحسن الشيباني

ونضيعك فى شيخوختك، وأمر أن توضع الجزية عنه وعن أمثاله، وأن يرتب لهم عطاءً ثابتاً من بيت المال رحم الله ابن الخطاب وأحسن جزاءه وأبقاه مثلاً وقدوة لمن يخافون يوماً يرجعون فيه إلى الله من ولاة المسلمين.

وفى ملحمة أخرى من ملاحم الرحمة العمرية، يتحدث غلامه (أسلم) فيقول: خرجنا مع عمر، حتى إذا كنا بمرتفع، إذ بنارٍ بعيدة فقال عمر: يا أسلم، إني لأرى هناك ركباً حبسهم الليل والبرد فانطلق، فإذا هي امرأة معها صبية صغار يبكون، وإذا بقدر على النار، فقال عمر: ما بكم؟! قالت: قصر بنا الليل والبر، قال فمال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر، قال عمر وما يدرى عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا، قال أسلم: فأقبل عَلَىّ عمر يقول: انطلق، فأتينا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق وكبه من شحم فحملها عمر على ظهره، فقلت: أحملها عنك يا أمير المؤمنين، قال: ويلك، احمل عنى وزرى يوم القيامة؟!

وانطلقنا حتى أتيناها، فألقى العدل عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، وجعل يقول: درى على وأنا أحرك، وجعل ينفخ تحت القدر، والدخان يتخلل لحيته، ثم أنزل القدر فأتته بإناء فأفرغ فيها الطعام، فقال أطعميهم وأنا أخبز لهم، فلم يزل كذلك حتى شبعوا، فقالت: جزاك الله خيراً . . كنت أولى بهذا الأمر من عمر.

ثم تنحى عنهم عمر وأخذ يراقبهم من بعيد دون أن يروه، حتى رأى الصبية ينامون فسأله غلامه عن ذلك، فقال: ما أسهرهم إلا الجوع، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

ملائكة الرحمة

آه من مهنة الطب حينما يسعى إليها فاجر، ويطلبها خسيس، ويمتهنها نهم جشع لا ضمير له.!

ساعتها ندرك بحزن جارف أن أبواب الرحمة تقلد مفاتحها فجرة لا يرحمون الإنسان، ولا يراعون فيه إلا ولا ذمة.

ولا يعني أنني أنعي في هذه المهنة ظُلامها، أنها عدمت في مشهدها من قدموا صورة ملائكية للطبيب الرحيم، لكن الأسى يبلغ مداه حينما نرى من يتزيا بزي هذه المهنة، وقلبه قد من صخر عنيف، وتجردت أوردته من كل معاني الرأفة والرحمة والإنسانية.

بل ننعي على المجتمع كله، يوم أن يهمل صحة الإنسان، ويترك زمامها بيد تجار البشر الذين لا يرحمون.

انظر لحال بلادنا كيف بلغت فيه سيرة الدكتور مجدي يعقوب، لتُقارب سيرة الأنبياء، حينما بذل علمه وموهبته في شفاء الناس مجانا وبلا مقابل، فتسبب في إحياء المئات والمئات! بل ارجع بالذاكرة في عام ٢٠٢٠م حينما توفي الطبيب محمد مشالي الملقب بطبيب الغلابة، رثته كل مصر وترحم عليه الكبار والصغار. وهو الذي شق طريقه، بنصائح أساتذته في الكلية الذين كانوا يرددون دوما: "من يريد امتلاك عمارة أو عزبة فعليه العمل في الاستيراد والتصدير، أما من يعمل في مهنة الطب فهو يعمل ليكسب دعوات الفقراء وهذه أعظم المكاسب".

كما أوصاه والده بخدمة الفقراء وعلاجهم دون مقابل، ليعمل بآخر كلمات أودعها الأب لدى ابنه قبل وفاته. بدأ مشالي حياته العملية في أماكن ريفية يعانى مواطنيها من أمراض البلهارسيا والإنكلستوما، بسبب عملهم في الزراعة. بينما لا يملك هؤلاء ثمن العلاج، وهو ما دفعه للتطوع لعلاجهم. وكما في حياة كل إنسان نقطة تحول، كان لدى الدكتور محمد مشالي لحظته الخاصة، التي جعلته يتمسك أكثر بوصية والده وأساتذته.

ذات يوم، هرع الطبيب لعلاج طفل طفل صغير مريض بالسكري أشعل النار في نفسه، لعدم قدرة والدته على دفع تكلفة علاجه. يقول: "كان يبكي من الألم

ويطلب من والدته أن تعطيه حقنة الإنسولين، فردت أم الطفل قائلة إنها لو اشترت حقنة الإنسولين فلن تستطيع شراء الطعام لباقي إخوته، ما دفعه للصعود إلى سطح المنزل وإشعال النار في نفسه".

ورُغم محاولته إنقاذ الطفل إلا أنه فشل، فكان لهذا الموقف بالغ الأثر في مسيرته المهنية، جعلته مؤمنا أكثر بنبل عمله الإنساني قبل التفكير في العائد المادي. إنه إنسان بمعنى الكلمة، ويقابله على الصورة الأخرى، أطباء بشعون، وحوش قذرة في شكل إنسان، وأضيف عليها أن لبست بدلة الأطباء، لتكون الصورة أبشع وأبشع في خيانتها وتريطها للأمانة.

يحكي أحد الأدباء عن واحد من هؤلاء الأطباء القساة الظالمة الجبارين فيقول:

" عرفت طبيبا كان همه الإثراء، والإثراء العاجل بأي ثمن، إن نهمه للمال لا يقف عند حد، لا تبرح ذهني ذكرى جلسة لي معه فوق مقعدين على الجسر عند قرية ننتظر إصلاح إطار عجلة السيارة، تلفنا ليلة غطيسة غابت نجومها، لا ينقطع زن الجنادب ونقيق الضفادع، كأنما طار من هلع لبه، فهي ترى دوننا روحا شريرة تخرخش في غيطان الأذرة، توشك أن تدهم الرض، وجرى بيننا سمر لذيذ، تخلله الضحكات العالية، ثم إذا بأذني تسمع من تحت الجسر صوتا خفيضا يهمس بتوسل ذليل:

يادكتور سايق عليك النبي أنا في عرضك اعمل معروف..

يقطع الدكتور كلامه لي، ويلتفت إلى مصدر الصوت وأنا لا أرى صاحبه، ويصرخ:

هات الريال وتعال..

- معنديش الليلة دي، ما احكمش على قرش واحد، من فضلك وإحسانك أنا تعبان حاتفرتك.

- ذنبك على جنبك.

سألت الدكتور عن الذي يطلبه منه الرجل ، والعجيب أنه أجابني بلا خجل وهو يضحك:

إنه فلاح يعرفه عنده حصوة في المثانة، تتحرك أحيانا فتمنعه من التبول، فإذا حدث له هذا جرى إليه في المركز فسلك له مجرى البول بالقسطرة لقاء ريال كل مرة.

والقسطرة مش معاك دلوقتي؟

أيوه..

وفيها إيه لو تريحه، حرام عليك.

سيبه ده ابن كلب، الريال أحسن من عينه.

وقمنا إلى السيارة ولا يزال الشبح من تحت الجسر ينادي: يادكتور سايق عليك النبي، أنا حاتفرتك.

نية مأجورة

حينما تكون نفسك محبة للخلق، شاعرة بآلامهم، تتمنى لو اتيح لها كثيراً من الخير لتدفع عن غيرها الكرب والبلاء. إن هذا التمني وهذه النفس، يجلبان الخير العميم على صاحبيهما.

نعم فمجرد النية يأجرك الله تعالى عليها، تأمل هذا الرجل من بني إسرائيل؟ كيف مدحه الله تعالى؟

* روى أن رجلاً من بنى إسرائيل مر بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعامًا لقسمته بين الناس حتى يشبعوا .

فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له: "إن الله قد قبل صدقتك، وشكر لك حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان هذا الرمل طعاماً فتصدقت به"[1]

* سمع فتى أمه تطلب ملحًا من جارتها لإتمام الطبخة، فتعجب لطلبها وقال لها: ألم أشتري لك كيسًا كبيرًا من الملح بالأمس، قالت: نعم قال لها: إذن لم تطلبي الملح من جارتنا، قالت، يا ولدي إن جيراننا ضائقه أحوالهم وكثيرًا ما يطلبوا منا الحاجات، فطلبت منهم الملح الرخيص لأشعرهم أننا أيضا نحتاجهم، لأخفف عنهم الحرج إذا هم طلبوا منا.

فما أروعها من أم، وما أجملها من نفس راقية تراعي مشاعر من حولها من الفقراء.

وذهب صاحبٌ إلى أخيه في جُنحِ الدجى يقترض منه أربعة آلاف درهم، ولم يكن عنده سواها، فأعطاه إياها ورجع يبكى، فقالت له زوجه: ما الذى حملك على إقراضه ما دام مالك يبكيك إذاً؟ قال يبكيني تقصيري في تفقد حال أخي حتى اضطررته إلى المجيء مقترضاً.

هكذا كانت الأخوة والحب، وهكذا كان الإحساس.

ما قيمة الأخ إذا لم يكن وقت الشدة ظاهراً يشد من أزرك ويعينك ويواسيك.؟

يسوقك حق الأخوة، وواجب النجدة أن تشعر بأن إخوانك من المحتاجين والفقراء.. مسئولية في عنقك تخشى أن يؤاخذك الله بهم، كما كان يخشى (وهذا أويس القرني) إذ بلغ به إحساسه بالشفقة على إخوانه، أنه إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: (اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به)[2]

وكان مع شدة حاجته يمر على المزابل فيجد الكسرة فيغسلها ويتصدق ببعضها ويأكل بعضها، ويقول (اللهم إنى أبرأ إليك من كل كبد جائع).

[1] - إحياء علوم الدين
[2] - سير أعلام النبلاء

أرأيت كيف كان حس الرجل تجاه نكبات إخوانه .. حتى الكسرة يقتسمها معهم فمال قلبك يتحجر اليوم فلا يلين لحاجة سائل، أو يشفق لبلاء بائس؟!!

أما القاسية قلوبهم من عباد الله على عباد الله، فقد شدد الله سبحانه عليهم النكير، وبين سوء مكانتهم وعظيم جريرتهم، هؤلاء الذين يتركون الناس حتى يهلكهم الجوع، وتفتك بهم الحاجة، ويمزقهم العوز ..هؤلاء وأمثالهم جعلهم الله تعالى في مكانة سحيقة ونالهم من غضبه ووعيده ما نال المشركين المكذبين بدينه ورسالته، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

ولم يفت شيخنا (حسن أيوب) رحمه الله أن يتحدث في هذا الجانب الذي عظم الله أمره في القرآن الكريم ، حيث قال: (لقد عظم الله تعالى هذا الجانب في آياته، فإن الذي يزجر اليتيم وينهره، ويُهمل المسكين الذي أذلته الحاجة ، وعضه الفقر والبؤس، هو إنسان كافر مُكذب بالدين لا يؤمن بلقاء الله وحسابه وجزائه، ولو آمن بالله وجزائه وكتابه لاندفع بقلب ملئ بالرحمة حريص على النجاة من عذاب الله وغضبه، فأكرم اليتيم، وأعطى المحتاج مما أنعم الله به عليه.)

ويبين الله سبحاته للمشركين مصيرهم المفجع، ثم يذكر لهم علة هذه الهاوية والعذاب الذي سلكوه فيقول تعالى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[1]

[1] - الحاقة: 13-34

ألست ترى ذلك الذي أُخذ إلى جهنم في سلسلة عظيمة ثقيلة، وصُبت عليه جميع أسباب الإهانة والمذلة.. إن الله تعالى لم يذكر في حيثيات الحكم عليه إلا أمران؟.

1- إنه كان لا يؤمن بالله العظيم.

2- ولا يحض على طعام المسكين.

وعدم الإيمان بالله هو أكبر ذنب وأعظم جريمة، فإذا قرن به ذنب آخر، فإنه ولا شك ذنب كبير الحجم عظيم الجرم.. والذنب الذي قرن بالكفر هنا هو: عدم الحض على طعام المسكين..! لقد جاء الذكر بعدم الحض ولم يأت بعدم منع الإطعام.!

وكأنه عقاب على جريمة اللاشعور والإحساس بمن أصابتهم الفاقة من الفقراء.

وفي التحرير والتنوير: (وقد جُعل عدم الحض على طعام المسكين، مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشحّ عنهم بماله)

ذنب عظيم أن تتمرغ الأمة في الشبع والتخمة وتتفنن في ألوان الأطعمة والأشربة على يد المسرفين، وهناك مساكين تتقطع أمعاءهم من الجوع، أو أيتام يعانون الحرمان، أو فقير تقهره الحاجة أو (أرملة فقدت عائلها فصارت تتغذى بدموعها، وتكتسي بهمومها، وتنظر بعينين زائغتين، لعلها تجد إنسانا تهزه إنسانيته فيرعاها، فإذا بها تجد ذئاباً تعوي لتمزقها وتقضى عليها.. أليس الجزاء هنا من جنس العمل ؟... أليس هؤلاء الذين يموتون من شدة الشبع والسكر والعربدة وإنفاق الأموال ببذخ على شهواتهم الحيوانية بينما البطون من حولهم تعوي، والأجساد تتعرى، والبؤس يخيم على طائفة من الناس، هم إخوانهم في الإنسانية وفي العقيدة وفي الوطن.. أليسوا يستحقون هذا الجزاء الإلهي العادل؟ ..إنهم أشقوا الناس فأشقاهم الله، وما ظلمهم الله شيئاً ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين.... وكما تدين تدان..)

(والعقاب في الآية يشمل أولئك الذين يمنعون الماعون وهم قادرون عليه، لكنه عم كذلك الذين لا يحضون عليه ولا يدعون له، ولا ينهضون القادرين أو يحثونهم على البذل وإيتاء الماعون)

أخوة صادقة

أخوك خلك وقرينك، وعونك على طريق الحق، من يذكرك إذا نسيت، ويدفع عنك إذا بليت، وفى وقت الشدة يصد عنك ويحميك، هو الذى نلت به ثواب الأخوة في الله، إنه أحق الناس وأولاهم أن تشعر به، فتتألم لآلامه وتحس بضيقة وأحزانه، ووقت السرور تنفرج أساريرك لابتهاجه، إنه الوفاء للأخوة في أسمى معانيه.

ولقد ضرب الصحابي الجليل (عثمان بن مظعون) τ أعظم مثال في الإحساس والشفقة بإخوانه، كان τ واحداً من هؤلاء الأوفياء الذين حملهم الوفاء ما لا يطيقه بشر، ولكنه تحمل المسئولية راضياً مع مشقة التكليف.

رأى إخوانه المسلمين من الفقراء والمستضعفين، الذين لم يجدوا لهم جواراً ولا مجيراً، يراهم والأذى ينوشهم من كل جانب، والبغي يطاردهم في كل سبيل، بينما هو آمن في سربه، بعيدٌ من أذى قومه فيثور روحه الحر ويجيش وجدانه النبيل، ويتفوق بنفسه على نفسه، ويخرج من داره مصمماً على أن يخلع جوار الوليد، وأن ينضح عن كاهله تلك الحماية التي حرمته لذة تحمل الأذى في سبيل الله، وشرف الشبه بإخوانه المسلمين، طلائع الدنيا المؤمنة، وبشائر العالم الذى ستنفجر جوانبه غداً إيماناً، وتوحيداً ونوراً.

ولندع شاهد عيان يصف لنا ما حدث:

- (لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ^ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى ما

لا يصيبني لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد ابن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك.

فقال له: لم يا أبن أخي، لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا ولكنى أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، فانطلق إلى المسجد فاردد على جواري علانية، كما أجرتني علانية، فانطقا حتى أتي المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان، قد جاء يرد على جواري، قال عثمان: صدق، ولقد وجدته وفياً كريم الجوار، وأحببت ألا أستجير بغير الله، ثم انصرف عثمان ولبيد في مجلس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان فقال لبيد: "ألا كل شئ ما خلا الله باطل" فقال عثمان: صدقت، قال لبيد: "وكل نعيم لا محالة زائل" قال عثمان : كذبت، نعيم الجنة لا يزول.فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سيفه فارق ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان بن مظعون حتى شرى أمرهما فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فأصابها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما يحدث لعثمان ، فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة، فقال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله.وإني لفي جوار أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.! فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جواري. قال ابن مظعون: لا.. وغادر "ابن مظعون" هذا المشهد وعينه تضج بالألم، ولكن روحه تتفجر عافية، وصلابة وبشراً.

فإن تك عيني في رضا الله نالها * يدا ملحدٍ في الدين ليس بمهتدى

فقد عوض الرحمن منها ثوابه * ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعد

فإني وإن قلتم غوى مضلل * لأحيا على دين الرسول محمد

أريد بذاك الله، والحق ديننا * على رغم من يبغى علينا ويعتدي

ولقد مضى في الطريق إلى داره يتغنى بشعره هذا:

هكذا بلغت الرجولة مبلغها من عثمان لقد نظر لنفسه، فوجد إخوانه يعذبون، ويذيقهم الكفار صنوف الأذى، وأشكال الردى فماذا يفعل؟

إنه لا يستطيع أن يقدم لهم يد المساعدة فيخلصهم مما هم فيه من بلاء شديد، إنه لا يملك مالا أو قوة يستطيع بهما أن يوقف من تسلط الجبارين على أهل الإيمان واليقين فماذا يفعل وقد تسربل بالعجز؟ هل سكت وتغاضى عما يحدث لإخوانه؟

هل قال (لهم الله) ولا أملك لهم غير الدعاء؟ إنها الأعذار لا ينطق بها رجال محمد ^ بل إنها لأقوال لا تنطلي على من وصفهم الله بأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لقد علّمهم نبي الله ^ أن المؤمنين كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص، ولابد أن يشعر الإخوة بعضهم ببعض، شعوراً إيجابياً يدفع للعمل والاستنقاذ، وعثمان حين انتابه هذا العور، لم تستقم له الحياة ولم يشعر بنعيم العيش وإخوانه في الحر تلتهب ظهورهم بالسياط وتمزق أجسادهم الحراب، ألا ما أقبحها من حياة ، وما أرذله من نعيم.

لقد رد على الوليد جواره، معلنا تضامنه مع إخوانه، عجباً ما لهذا الحس المرهف الذى تمتع به عثمان يغيب اليوم عن مسلمي هذا الزمان، ليصير حالة من الميعة والفتور، بل حالة من الأنانية التي تمتعت بها الأنفس.

المسلمون لا يتحرك ساكنهم، ولا يتأثر جانبهم.. ماتت المروءة، وزبلت جذور النجدة والنخوة، وأصبح الحديث عن الأخوة والنصرة ضرباً من الأساطير، كل يوم يسمعون بهوان هنا وهوان هناك، وجورًا فادحاً يقع على إخوانهم، ولا يتألمون لهم أو حتى يتابعون أنباءهم المرة.

الإحساس ليس مصمصة شفاه

لا تظن أننا حينما نطالبك أن تكون حساسا بمشاعرك تجاه الآخرين، أن تكتفي بهذا الإحساس وحده فيحزن قلبك وتئن نفسك، وتبادرك للمبالغة في التعبير عن المأساة فتمصمص بشفاتك تعبيرا عن شعورك وتعاطفك الغائر بالمصاب.

فالإحساس الذي لا يحرك صاحبه للعمل والنجدة وإنقاذ المبتلين ولو بالكلمة، إحساس ذائف، وعمل المتبلدين، وهو تمامًا كهؤلاء الذين يكتفون من الإيمان بقولهم: آمنا، أما أفعالهم فلا يحركها هذا الإيمان ولا تدل عليه.

لقد رأى موسى عليه السلام حال المرأتين، وأحس بمحنتهما، لكنه لم يكتف بالأسف وشعوره بالضيق، ويحمد في نفسه هذه المشاعر التي يمكن أن تخدع ضميره ليرضى عن نفسه ليظل مكانه بلا حركة ولا موقف، لكن سارع لمعاني الرضا الحقيقية، حينما تحرك بصورة عملية لرفع هذا البلاء والسقي للمرأتين الضعيفتين، اللتان لم يزاحما الرجال، ولم يكن لديهما القدرة على رفع غطاء لا يقوى عليه إلا عدد من الأشداء.

يقول تعالى:(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) [القصص : 23-24]

وللشاعر الكبير أحمد شفيع، قصيدة طويلة تحت عنوان (عبيد المال) نظمها في مجلس واحد، كانت هذه القصيدة نتاج حادثة سمعها من غلام شاب من طلبة المدارس، والده تاجر من كبار الأغنياء يسكن مع الأستاذ في شارع واحد ويتزاوران، فقال الغلام في حياء خجول : لقد جئت إليك يا سيدي لأشكو والدي، إذ ذهبت إليه ساعة غروب الشمس في شهر رمضان راجياً أن أتناول عنده الإفطار، ولكنه ـ وهو متزوج بغير والدتي ـ نهرني وطردني، وقال لي: اذهب لأمك فهي تأخذ النفقة الشهرية ثلاثة جنيهات!

سمع الأستاذ القصة فكاد يبكي، وقال في حسرة: غلام يأتي إلى أبيه جائعاً في شهر رمضان فيحرمه!! ثم صحبه الأستاذ شفيع إلى منزل والده، فلما خرج والد الفتى قال له: يا فلان من الغد إذا ذهبت إلى السوق تشتري الطماطم، فاطلب من البائع واحدة بعد الميزان، ثم اطلب من الكوسة واحدة أخرى بعد الميزان، فإذا ذهبت إلى المنزل كوباً من الماء زيادة في القدر الذي يطبخ فيه الخضار، وحين يجيء ولدك المسكين، فقدم له طبقاً لم يكلفك شيئاً، لأن محتوياته جميعها من غيرك، ولا عليك من ثمن الرغيف فسأعطيه إياه!! قال الشيخ هذه الأطروفة في لهجة المتألم ، وقد حزت في نفسي، وكدت أصيح من الألم، ثم تركه شفيع دون أن يأخذ تحية الضيافة .

وفي الغد كتب الشيخ الجليل قصيدة في سويعة يسيرة جعلها ذمًا لعبيد المال بوجه عام، دون أن يتعرض للبخيل المشؤوم، إذ ليس من أخلاقه أن يخص أحداً بالهجاء مهما كان نذلاً وضيعاً، وقد نشرت القصيدة بمجلة الأزهر، وفيها يقول:

لمن المال تجمعون وأنتم ** في حياة قد أذنت بالزوال

كم نصبتم حبائل المكر للما ** ل وغالبتمو شديد المحال

حكمة لا تحار فيها عقول** غير عقل عن الهدى في عقال.

لاحظ هنا أن الشيخ هنا لم يكتف بقلمه فقط، حينما كتب قصيدة عبرت عن أسى قلبه، حتى يشعر براحة ضميره، وأنه قد أدى دوره تجاه المحنة والأزمة، وأنه فعلا قدم مواساته لهذا الشاب الشاكي الحزين، وتلك ظنون العاجزين.

لكن الرجل تحرك بشهامة الفارس، وإلى أرض الواقع، ليزيل الجور ويرد الحق ويبصر الغافل، وينبه الظالم، ويطالب بالواجب، ويدعم الخلق ويرد عنت النفوس.. وتلك هي أخلاق من يشعرون، فمن يكتفي فقط بالكلمات، يوهم نفسه، ويخدع ضميره، وإنما لابد من الحركة ترضي الضمير بموقف عملي.

ولعل الموقف يذكرني ببعض شيوخ الدين الذي كان يؤلف الكتب، وكلما كلمه أحدهم عن دوره في الانتصار للإسلام، يشير إالى كتبه ويقول: انظروا لهذه الكتب التي فاقت الخمسين والستين كتابًا، كلها في خدمة الإسلام، وإذا ما تركنه برجه العاجي، ومحرابه الذي يكتب فيه، لعلمنا أن هناك من هو أقل منه في العلم، ولم يكتبوا صفحة واحدة من كتاب يحمل أسماءهم، نزلوا لأرض الواقع وأخذوا يخدمون الإسلام بصورة عملية مرئية ملموسة مشهودة، غير مكتوبة ولا مسموعة، انخرطوا في دنيا الناس فساعدوا الفقير وردوا المظالم، وأحدثوا أعمال الخير والبر، ودلوا الناس بكثير من المواقف على الأخلاق الحسنة الكريمة، فكانوا قدوة مضيئة لهم على الطريق.

على درب المشاعر

وفي كتاب (الإمام حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه) للأستاذ جابر رزق – يحكي الأستاذ سعد الدين الوليلي، سكرتير الإمام البنا ذكرياته معه يقول:

"هبطت بنا الطائرة في أرض سوريا يوم امتلأ فندق (أوريان بلاس) وهو في مصاف سميراميس ومينا هاوس وسيسيل- بقادة العروبة في اجتماع للجامعة العربية للتشاور في أمر فلسطين، وهكذا كان شأنه، مطاردة المسئولين في كل مكان ومجابهتهم بالحقائق المرة وإعلانهم بمطالب الشعوب الحرة .

وفكر الإخوان هناك في إكرامه، وإحلاله محله من الاحترام والتجلة، واستبد بهم هاتف التعظيم والشعور بالتوقير، فلم يجدوا مناصاً من أن يحجزوا لفضيلته في (أوريان بلاس) فالإمام ليس أقل من فلان أوفلان.. ولئن وجد هؤلاء من خزائن دولهم ما ينفقونه أو ينهبونه، فلن يحرم الإخوان القدرة على البذل من أجل القائد المفدى والسيد المطاع، وعند انتصاف الليل دعانا الأخ عمر بهاء الدين الأميري (وزير سوريا المفوض في باكستان فيما بعد) للنوم والراحة.. ولشد ما كانت دهشة فضيلته حينما وقف بباب الـ (أوريان) ثم صاح: (ياعمر) أنبيت هنا في هذا المكان الأنيق، حيث الفراش الوثير والعام الشهي... وإخواننا

المجاهدون في معسكري البريج بفلسطين، وقطنا بسوريا، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء؟! والله لليلة واحدة في دار من دور الإخوان، أفترش الحصير، أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وكان البنا –رحمه الله يفكر وإخوانه في أحوال المسلمين، يحللون الداء ويبحثون عن الدواء، حتى يفضى به التفكير إلى حد البكاء، وها هو يقول في رسالة المؤتمر الخامس:

(ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء ونفكر في العلاج، وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء.)

هكذا يحب أن يكون المسلم، جزءاً من المؤمنين لا يكتمل إلا بهم، ولا يسلم إلا بسلامتهم إذا ظلموا هب لنجدتهم، وإذا دهمهم الخطر أسرع ليزيله عنهم.

لقد كان الرجل آية في الذوق والإحساس، وكان حريصا على مشاعر الناس، وعدم إحراجهم إبقاء على الود، وكسباً لقربهم وصداقتهم، حتى ولو كانوا مخطئين ويستحقون الإحراج، ومن مواقفه التي ذكرها الأستاذ/ السيسى فى كتابه (الذوق سلوك الروح):

(قال لي الأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد العام للإخوان المسلمون: إنه وجه الدعوة إلى فضيلة المرشد الشهيد حسن البنا لزيارة مدينة منفلوط، وقد لبى الدعوة وأقيم بمناسبة حضوره حفل دعي له جمع كبير من الناس، وكان من الذين شاركوا فى الحفل شاعر ألقى قصيدة فى المناسبة – وقد لاحظ الشهيد حسن البنا من أحد الجالسين بجواره أنه يتابع النطق بأبيات القصيدة كأنه يحفظها، فسأله هل أطلعك الأستاذ الشاعر على قصيدته؟ قال إن هذه القصيدة من تأليف جد السيد محمد حامد أبو النصر ولكن الشاعر نسبها لنفسه وبودى أن أراجعه فى ذلك! فقال له المرشد الشهيد هل تريد أن تبهت الرجل وتحدث بينك وبينه فجوة؟ إن الشاعر يريد أن يكرمنا فهل يستحق منا أن نؤذى شعوره،

لأن يبقى صديقا لنا خير من أن يعادينا، لأن الإنسان ينسى الحسنة ولا ينسى السيئة.!

بل كان يقدر لكل ذي مقام مقامه، فلا يعتدي على ذلك المقام، بل يحرص على تقديم أصحابه والإكبار بهم (فها هو قد حضر حفل عقد قران ابن أحد أكبر علماء الأزهر وهو كبير عائلة شريت من ريفا بمحافظة أسيوط، ودعي إلى هذا الحفل فضيلة الإمام شيخ الأزهر الشريف، والشهيد حسن البنا، وقد حضرًا، وحين بدأ عقد القران تقدم عدد من أبناء العائلة إلى فضيلة المرشد حسن البنا ليتولى عقد القران، ولكنه اعتذر عن ذلك بإصرار وقام بنفسه وقدم الإمام الأكبر ليتولى صيغة العقد وبذلك أرضى الجميع بهذه اللفتة الكريمة المؤدبة من أخلاق حسن البنا في تربية أبناء هذا الجيل، الذى يجب أن يخرج حظ نفسه من نفسه.

وفي معتقل الهايكستب كان مدير السجن يحب الإمام حسن الهضيبي، ويتودد إليه، فأحضر مدفأة كهربية من مكتبه لتدفئة زنزانته، فرفض رفضاً تاماً، وقال له: إذا كان باستطاعتك أن تقدم هذه الخدمة لجميع الإخوان، فيسرني أن أكون آخرهم، وإلا فوفر على نفسك هذه المشاعر مشكوراً، فانتظر المأمور فرصة طابور الصباح ووضع المدفأة خلسةً في زنزانة الإمام الهضيبي، فما كان من الإمام إلا أن أخرجها من الزنزانة وسلمها لحارس السجن وأغلق على نفسه الزنزانة.

مواقف لا تحتاج إلى شرح أو تعليق، فتصرفاتها تنضح بمثالية عظيمة عالية مثالية، للنفوس النبيلة الراقية.

وحين جرى التقسيم بين الهند وباكستان، كان إقليم (جورداسبور) من نصيب باكستان، إلا أن الطاغية (نهرو) طمع في كشمير، وكان طريق (جورداسبور) هو الذي يربط كشمير بالهند، فإذا به يعلن مساء 17/ 8/1947م ضم الإقليم.

وراح الهندوس فور الإعلام يشنون غاراتهم على المسلمين، فهرب المسلمون لدار الإسلام ولجأ إليها أكثر من ألف مسلم، وأقام الأستاذ أبو الأعلى المودودي معسكراً للاجئين، نظم لهم فيه الإقامة ولوازم المعيشة من مأكل ومشرب وملبس، وفي تلك الأيام حضر عنده في دار الإسلام أحد كبار الضباط في بوليس باكستان ليأخذه إلى المنطقة الآمنة، وأبدى إعجابه الشديد بالمعسكر وما فيه، لكن المودودي رفض أن يذهب وحده ليحمي نفسه، ويترك هؤلاء المساكين يصارعون الموت، وفي ذلك الوقت حضر إليهم أحد أنصار الجماعة ومعه مجموعة حراسة من باكستان، وأخذ الأطفال والنساء إلى لاهور، وبعد أيام استولى الجيش على معسكر دار الإسلام، فرحل أبو الأعلى ورفاقه إلى لاهور التي وصلوها في 1947/8/29م .

ولما وصل هؤلاء المهاجرون إلى لاهور، كان هناك مبنى مخصص لاستقبالهم غير أنه أخذ منهم، فقرر الأستاذ عدم الاعتماد على ذلك ونصب الخيام في الميدان العام وأقام الجميع فيها، وكان الشتاء على الأبواب والأمطار تغرق في الشوارع، فاقترح بعض الذين يظنون بالجماعة خيراً، أن يعطوا الأستاذ بيتاً له ولعياله، فرفض وألح عليه رفاق الهجرة أن يقبل ذلك، حتى لا يعرض أهله وعياله للمتاعب والمشاق، لكنه أصر على رفضه وقال: كيف أسكن في منزل ويسكن غيري في الخيام تحت سيول الأمطار، نحن سواء ولكن كل منا مع الآخر في العسر واليسر وفي الفرح والألم. !

جراحات في الحديقة

تقول إحداهن: "حين قررت مع أبنائي أن نخرج في نزهة قصيرة لحديقة الحي التي اعتدنا الخروج إليها دائما، لم أكن أتوقع حينها أني سألتقي امرأة بائسة جعلتني في حيرة من أمري لأيام متتالية إلى أن قررت أن أحكي حكايتها!

فرشنا "فرشتنا" ورتبنا أغراضنا وسارت الأمور كالمعتاد، إلى أن جلست بجوارنا أسرة صغيرة مكونة من رجل في نهاية الـ 60 من عمره، وامرأة

تقاربه في العمر وأخرى في العشرينات وطفلتين في الرابعة والخامسة من عمريهما، جلس الرجل والفتاة الشابة على كرسيين، بينما المرأة العجوز جلست على الأرض مع الطفلتين، واستغربت من ذلك ولكن زاد استغرابي حين رأيت الطفلتين تجذبان يدي المرأة حتى تصحبهما لشراء "فشار وعصير" من البائعات، فقامت بصعوبة من الأرض وكانت تعرج في مشيتها، بعدها بفترة عادت الطفلتان لتجذبا يديها من جديد، حتى تصحبهما عند الألعاب، وكم ذهلت حين سمعت الرجل ينهرها بقسوة وهو يأمرها بالذهاب معهما، وددت لحظتها لو صرخت بوجه ابنتها الشابة العاقة، وهذا الأب الذي يرى زوجته العجوز ومشيتها المتثاقلة ولا مبالاة ابنته، ورغم ذلك يقسو عليها، شيء من الرحمة والشفقة تحرك في داخلي ناحية المرأة العجوز، فذهبت إليها وهي تقف بجوار الألعاب لأطيب خاطرها، وحين بدأت في سرد معاناتها ذهلت وتمنيت لو أني لم ألتقها!

تقول "هذا الرجل زوجي وهذه الشابة هي ضرتي، وهؤلاء بناتها، وهي من جنسية عربية، لم أنجب ذرية، وحين تزوج منها جعلني مجرد خادمة لها ولبناتها، مشكلتي أن صحتي لا تساعدني وأخشى أن أتذمر أو أعترض فيطلقني، ولا أحد لي في هذه الدنيا سوى أشقاء، أنا واثقة لو أخبرتهم بمعاناتي لوقعوا تحت ضغط زوجاتهم، وتسببن لهم المشاكلات، وهم لن يساعدوني في كل الأحوال، كل الأبواب يا ابنتي موصدة في وجهي، ليس لي أحد.. وليس أمامي إلا الصبر والدعاء".

- ظلت صورة هذه المرأة العجوز راسخة في عقلي تدفعني إلى تساؤلات مؤلمة، إلى أين وصلنا في علاقاتنا الإنسانية؟

- كيف يمكن لزوج أن يرضى الذل والهوان لرفيقة درب شاركته الحياة 45 عاما؟

- هل أصبح الأشقاء مجرد أرقام وأسماء في بطاقة العائلة؟!

كانت مرارة كلماتها تمتزج بقسوة واقعها وخيبة أملها بزوج لم يصن العشرة وأشقاء لم تتحرك النخوة في قلوبهم!

يقول النبي ﷺ: " استوصوا بالنساء خيرا"[1]

مساكين أهل الفكر لو تركوا صرعى لعبث الأطفال، لتكون عقولهم ضحية عبثهم وتخبطهم، على العادة كل يوم، يضج الأطفال بصخب عنيف، يكاد العقل ينفجر من صياحهم، بعدما تاه من وجداني تلك الأفكار الجميلة التي اهتديت إليها، وأحببت أن أكتبها في مقال قويم أمتع به قرائي.

لقد انتقل الصياح والضجيج إلى معارك وشجار، وقذف ورمي واعتداء وبكاء، فكان لابد من الخروج، لتفريغ هذه الطاقات الطفولية المفزعة، التي توشك أن تنفجر في وتقضي علي، لو لم أجد حلا سريعا أنهي به مهازلها، وأكتب به النجاة لنفسي وفكري وعقلي.

خرجنا إلى تلك الحديقة الغناء، وجلست على مقعدي، وطلبت كوبا من الشاي، لأستجم بعيدا عن أصواتهم العالية، وطلباتهم التي لا تنتهي، وإلحاحهم الذي يثير الأعصاب، نعم إنها فرصة هائلة للاختلاء بالنفس والتفكر في كثير مما حولي، لعلي أهتدي لقصة أكتبها، أو فكرة أحوم حولها، في هذا المكان الذي تكسوه الخضرة، وتهل فيه الزهور علي من كل جانب تحييني وتؤنسني.

ولعلك الآن تسأل أين ذهب أعداء الفكر والتأمل؟

أين ذهب أطفالك المزعجين؟

لا يغيب عنك حبيب أبدا أيها السائل، فها هم هناك، على الجانب الآخر من الحديقة، حيث الألعاب التي تلهيهم، والزحاليق التي يقفزون عليها، والأراجيح التي تترنح عليها أجسادهم، إنهم في عالم آخر، بعدما انفكوا عني، وأطلقوا سراحي بعيدا عنهم، لأتركهم فيما يلهون فيه، وأتابع عالمي الذي أحب الركون

[1] - متفق عليه

إليه، ولكن مهما كان ابتعادهم، ومهما كانت سعادتي بوحدتي، فلابد لي أن أتابعهم بين الحين والحين، أرقب تصرفاتهم، كما أرقب سعادتهم، حتى لا يعتدي بعضهم على بعض، أو يمسهم أي سوء من غريم أو دخيل يفسد عليهم نشوتهم.

وبينما أنا أرقبهم، وهم يركبون الأراجيح، ويهتز جسدهم من المرح يمنة ويسرة، وأعلى وأسفل، والابتسامة لا تفارق محياهم، لمحت امرأة معها طفلتين تجرهما وتتوجه إلى حيث طفلاي يلعبان ويمرحان، فإذا بي أرى عجبا، لقد أمرتهما المرأة أن ينزلا عن الأرجوحة، ويتركانها لطفلتيها، ونزل الصغيران والحزن يعتصر قلبيهما، وأرى بواعث الكآبة ترتسم على وجهيهما، بعدما كانتا تشع سعادة ومرحًا.. لقد اغتصبت المرأة الغاشمة حق الصغيرين، شعرت وقتها بغليان في جسدي، ونارًا تأكل صدري، وغضبًا متصاعدا يدغدغ دماغي، لم أطق هذه العجرفة وهذه الأنانية، وهذا السخف النسائي الفج، وعقدت العزم على خوض ملحمة الغضب، فهذه المرأة من هذا النوع الذي يحتاج إلى تأديب وتهذيب، وربما لو استدعى الأمر سبا وشتما ولطما، لقد كانت نفسي ثائرة فائرة، تغلي غليان المرجل، ولن يخمد ثورتها إلا الحط من كرامة هذه المرأة، وإيقافها عن حدها، وبسرعة البرق انطلقت لمكان الحادث، ووقفت خلف المرأة، وناديت عليها بصوت عال مزلزل، فالتفتت إلي، وبينما أنا أستعد لأكيل لها عنيف الألفاظ، وقاسي العبارات، رأيت ابنتيها الكفيفتين، فإذا بهذا الأسد الثائر في نفسي يتحول إلى حمل وديع، أو قط مفزوع، وإذا بهذه العين التي كانت ترمي بالشرر، تسيل منها الدموع السخينة المنحدرة، وإذا بهذا الغيظ المتلاطم، يتحول بقدرة الله إلى إشفاق لا حد له، وإذا بهذا الغضب الذي هم ليأكل هذه المسكينة، يتحول إلى رجاء واستعطاف، يريد أن يدفعني منحنيا لأقبل قدميها ويديها لتغفر لي ظلمي لها، وقسوتي عليها.

وأيم الله لقد خجلت من نفسي أيما خجل، وأحرجني غضبي حرجا لم أمر بمثله، وأخذت آسف على ما نويت عليه من سوء الطوية، وارتدت أقدامي للوراء

خائبة، وأعطيت المرأة ظهري، ووليت هاربها من وجهها، وأخذت أردد في حزن كثيف:

ليتني ما قمت

ليتني ما غضبت

ليتني ما رأيت.

يشعر بإخوانه رغم محنته

ذلكم هو البطل الشهيد –بإذن الله- الدكتور المناضل المجاهد(عبد العزيز الرنتيسي) يضرب المثل الرفيع في الشعور بمحنة شعبه والتألم لآلامهم ،حتى ولو كانت البلايا تثقل كاهله، لم يمنعه ما يعيشه من محن شديدة، وما يحيى فيه من بلاء ثقيل.. أن يتطلع لمحنة إخوانه في أفغانستان، في ذلك الوقت الذي كان الروس يفتكون بها، ويدهسون أرضها في احتلال مسعور، فيرثى حالهم ويحيى جهادهم وينظم في ذلك شعرًا يقول فيه:

رغم الجراح الداميات بغزة ** رغم العذاب من اليهود صلاني

بالرغم من بيتي المدمر إنني ** أهدى التحية شعبنا الأفغاني

ويقص الدكتور خالد الخالد – عميد كلية الآداب والمحاضر في قسم التاريخ بالجامعة الإسلامية- عن الشهيد د- الرنتيسي: عندما كان رحمه الله طالباً يدرس الطب في مصر، حدثني أنه عندما هزم العرب عام 1967 حزن حزناً شديداً، لدرجة أن هذا الحزن أثر عليه جسديا، الأمر الذى استدعى نقله إلى المستشفى لمعرفة سبب مرضه، ولكن الطبيب وبعد أن أجرى الفحوصات اللازمة، وجد الدكتور الرنتيسي سليماً ومعافى، وقال له: (أنت لا تشكو من مرض جسدي، ولكنك تعرض لصدمة نفسية أثرت على جسدك)

حالة الدكتور الرنتيسي هي ذاتها التي رثاها شيخنا الغزالي فيما وصل إليه حال العرب والمسلمين، حينما جفت قلوبهم تجاه إخوانهم، وصاروا لا يتألمون لمصابهم وهمومهم.

يقول الشيخ الغزالي:

"الكيان الإسلامي يتقطع في مواضع كثيرة، وإذا الأعداء ينفردون قديماً بالقدس أو بأنطاكية أو ببغداد، أو الفلبين أو نيجيريا ويذيقون أهلها الحتوف، وبقية المسلمين في المدائن والقرى جاهلون أو عاجزون.

أمس كنت أتابع الاستماع إلى آخر الأنباء عن مجزرة الفلسطينيين في بيروت، وسمعت أن رفات الموتى لا يزال متناثراً في أنحاء المخيمات، وأن عفونة الجثث بدأت رائحة الجو، وأن رجال الصليب الأحمر، شرعوا يحفرون مقابر جماعية ليخفوا آثار المأساة أو ليمنعوا انتشار الأوبئة.

وحولت مؤشر (الراديو) لأسمع كلاماً آخر، فإن روحي يكاد يزهق من الحزن!!

وصدمت أذني إذاعة القاهرة وهى تقدم للمستمعين في فترة الظهيرة من 21 سبتمبر 1982 أو أيلول الأسود كما يسميه البعض – أغنية عبد الوهاب ليلنا خمر .!

ورأى أحد جلسائي تغير وجهي، وهمست وأنا مستغرب: كان من الممكن أن تقدم الإذاعة للمغنى نفسه، وللمؤلف نفسه، قصيدة أخي جاوز الظالمون المدى فما هذا العمى؟!

إن قصيدة ليلنا خمر ما يجوز أن تذاع أبدا، فالإسلام يحرم الخمر ليلاً ونهاراً، وعندما كانت الخمر مباحة في الجاهلية العربية حرمها العرب على أنفسهم عندما يضامون ويكون لهم ثأر، حتى لا تنسيهم الخمر ألمهم وتسليهم عن مصابهم.

فكيف يسمعون الآن من يغنيهم بصوت رخيم "ليلنا خمر"

لكن واضعي البرامج والمشرفين على الإعلام في واد آخر، إنهم ينادون من مكان بعيد ويظهر أن العرب أصبحوا الآن بعراً على صعيد هذه الأرض، فهم يتلقون الأذى سكارى أو طلاب سكر"

إن اليهودي في أمريكا يغضب لمصاب أخيه في روسيا لأن اليهودية موجوده، والولاء السياسي لها قائم، والتنادي باسمها مسموع.

أما فى بلادنا، فإن رئيسا عربيا يواجه هذه الحقيقة بقوله: (لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) إنه يقول ذلك للمسلمين وهو يرى أن السياسة أقامت لليهود دولة على أنقاضنا، وجعلت الانتماء لها يتجاوز الحدود الإقليمية، والأوضاع الدولية.

فإذا حاول داعية استثارة الشعور الإسلامي ضد مذبحة يهودية، وقعت بالمسلمين، استنكر كلامه واقتيد إلى السجن أو المعتقل.

لأن السياسة – التي أقامت لبنى إسرائيل دولة- محظورة على المسلمين المستضعفين، والرئيس الذي قال هذا الإفك يريد ترضية المسلمين بواقعهم الممزق ووجودهم الصوري، فهو يفخر بصداقة "بيجن"، وهو يريد كسر حاجز الخوف بين العرب واليهود ولقد نوم الناس كما طلب منه، وأتاح لليهود أن ينفردوا بالفلسطينيين واللبنانيين ويقتلوا منهم عشرات الألوف." [1]

الجبار.. لم يكن جبارًا !

أريد الآن وهنا أن أثبت شيئا لم يكن مثبوتًا، ولعله جديد وغريب على العقول والآذان والأذهان، أريد أن أجلي الغبار عن سمة الإحساس والرقة والمشاعر، في رجل ظلمه الناس وظنوه جبارًا عنيفًا قاسياً جافاً.! ظنوا عنه وفيه أنه لا مكان للقلب والعاطفة في نفسه ووجدانه، لأن الذي سيطر عليه إنما هو المنطق

[1] - علل وأدوية – محمد الغزالي

والتفكير، فهذه حياته يقضيها في جد صارم، لا تفتر شفتاه ببسمة أو ضحكة واحدة إلا بعد استغفار وأوبة.!

أما هو فقد أقسم بأن هذا الذي يراه الناس إنما هو رجل لا يعرفه ولم يره، ولم يعش معه لحظة أو يلتق به في طريق، بل إنه كما يقرر أن نقيض ذلك هو الصواب، فهو رجل مفرط في التواضع، ومفرط في الرحمة واللين، رجل لا تلفت لحظة واحدة من ليله أو نهاره من سلطان القلب والعاطفة.

ولعل قلمه هو الذي جلب إليه هذه الظنون، وهذه الصورة العنيفة، التي رماه بها الناس، حينما قضى ردحًا من الزمن في الخصومات الفكرية والمجادلات الفلسفية والمعارك الأدبية، وربما ساقت الخصومة خصومه أن يمسوا ذاته، فيضطروه للانفعال فيؤلمهم جميعًا بقسوة قلمه، إنه القلم إذن الذي أعطى صورة لصاحبة على غير الحقيقة، حتى الذين مدحوه، كان مدحهم من هذا المنطلق، ولم يكن نابعًا من معرفتهم للحقيقة وإحاطتهم الكاملة بمعالم الشخصية، لقد وصفه سعد زغلول فقال عنه: الكاتب الجبار، وقال فيه الرافعي: "إن الذي يريد أن يهدم الجبل، لا يستخدم الفشينك ولا البارود، ولكن يستعمل الديناميت، وقد استعملت كل ما لدي من الدناميت لأهدم الجبل، وانتهى كل ما لدي من هذه المادة المدمرة، ثم نظرت إلى الجبل فإذا هو باق كما هو.!"

فكيف إذن وأين هذا الجانب العاطفي الذي يجهله الناس عن العقاد؟

إنه العقاد الحساس الذي لم يكن يدرك الناس، أنه كان قمة في هذا الميدان، وأن صاحب هذا القلم الذي يرمي بالرعد القاصف، ما هو في حقيقته إلا صاحب نفس تتدفق رقة وحنوا، انظر معي وتأمل ردود أفعاله في هذه المواقف، لتعرف وتدرك صدق من نقول مما خفي علينا من حقيقة الرجل.

كانت دموع العقاد قريبة من خديه، فما أن يرى موقفا مؤثرا، حتى تنهمر الدموع تأثرا وإشفاقاً، ويدل هذا على قوة مشاعره، وتدفق أحاسيسه، ورقته العميقة، كما يدل في نفس الوقت على القوة والرجولة الحقيقية، فلبس البكاء

للرجال عيبًا يشانون عليه، وإنما هو سمة تزينهم حينما يتسمون بالمشاعر، ويعلنون عن خصوبتها في أنفسهم، يقول الأستاذ (محمود الطناحي): "كان العقاد شديد الحساسية سريع البكاء، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء."

وحينما كان مسجونًا بتهمة العيب في الذات الملكية، وقع نظره يومًا على شرطي يهوي بسوطه على ظهر سجين، ثم ينبثق الدم من ظهر المسكين، فعاد العقاد على السجن باكياً، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه، واستمرت أنآت الرجل تدوي في أذنه، ولم يرحم خياله من أن ذلك الرجل قد أتى ذنبًا استحق عليه العذاب.!

يقول العقاد: "لا أصبر على منظر مؤلم أو شكاية ضعيف"

وحينما كان في السجن رجى الطبيب أن يختار له وقتًا للرياضة، غير الوقت الذي تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين، فدهش الطبيب لطلبه، وظن أن ما يسمع أعجوبة من الأعاجيب، وقال له: حقيقة ما كنت أظن أو أتوقع أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد الجبار.

كما أصيب كذلك في السجن بنزلة حنجرية حادة، حرمته النوم وسلبته الراحة، وكانت زنزانته التي يسجن بها، على مقربة من أحواض الماء شديدة الرطوبة والبرودة يحيط بها الأسفلت من أسفلها إلى أعلاها، ولا تدخلها الشمس إلا بإشارة من بعيد، وهو ما يتنافى مع حالته الصحية ويضاعف من تدهورها، فعرض المحامون أمره على المحكمة، والتي حولته بدورها على النيابة، ودرسته الأخيرة مع وزارة الداخلية ومصلحة السجون، وتقرر أخيراً نقله إلى المستشفى، وإقامته في غرفة من غرفها تشرف على ميدان فسيح وحديقة واسعة، وتتصل بالداخلين والخارجين أثناء النهار، ويتردد عليها الأطباء والموكولون بالخدمة الطبية من الصباح إلى الصباح، اعتبر العقاد أن هذه النقلة فرج كبير ومنحة ساقها الله تعالى إليه، فصعد إلى المستشفى وهو يعتقد

أن الخطر قد زال أو هان، ولكن كان إحساسه ورقي شعوره، منعته من الإقامة في هذه الحجرة، فلم يلبث بها ساعة، حتى شعر أن الزنزانة المغلقة أهون ألف مرة من هذا المكان الذي يسمع فيه أنين المرضى وشكاية المصابين والموجعين، يقول العقاد: ثم غالبت نفسي ساعة فساعة، حتى بلغت الطاقة مداها، ولما لم يطلع الفجر من الليلة الأولى، وإذا بي أنهض من سريري، وأنادي حارس الليل، ليوقظ ضابط السجن، ويعود بي إلى الزنزانة من حيث أتيت، ولتفعل النزلة الحنجرية وعواقبها الوخيمة ما بدا لها أن تفعل ، أنا أعلم أن الرحمة المفرطة باب من أبواب العذاب في حياتي.

وفي حياتنا ندرك ونستدل على عاطفة أي إنسان، وحضور الرحمة في نفسه، حينما نراه محبًا للأطفال رحيما بهم، أما العقاد فقد كان عاشقًا للأطفال حيث يقول عنهم: "الأطفال محبوبون لأنهم أزاهير الإنسانية، وترجمان ربيعها، محبوبون لأنهم بشائر الشباب والحياة "

وكان كل الأطفال في منزله أصدقائه، يصعدون إليه، ويتحدثون معه، وكان يعدهم دائما كما ذكر أنيس منصور: أنهم معلمون من الطراز الأول، لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز، فهم لا يكتمون شيئا، وكان يحب تأملهم حينما يبكون من مصائبهم الصغرى التي تضحك الآخرين لتفاهتها، فهؤلاء الأطفال مصائب في وقت الحرج، ولكنهم يقوموا بتسلية الإنسان حتى وهم يحرجوه، ويعلمك أحدهم أن دروسه التي يمليها عليك، أفضل من دروسك التي تمليها عليه، وكان يرى فيهم متعة غالية الثمن، ودائما كان ينعت من يعتقد أن الحزن على الصغير، أهون من الحزن على الكبير.. بالجاهل" ثم يعبر العقاد عن حالة نفسه وشفقتها الكبيرة التي لا تدانيها شفقة، وهو يعاين آلام الصغار وآهاتهم فيقول: "نظرة إلى طفل مريض، تنسيك متاع الدنيا بأسرها، وصيحة ألم من ذلك الصغير تزلزل عزائم الأبطال، أما إذا كان الخطب أجسم من ذلك، فلا حول ولا قوة فيه إلا من حول الله وقوته، وكلاهما ليس في اليدين.."

لقد كان العقاد قمة في الذوق والإحساس فقد كان يخشى أن يجرح شخصًا بكلمة أو لفظاً يؤذي مشاعره، حدث مرة أن التقى بأحد أصدقائه، وهو في طريقة إلى إحدى دور السينما، وبينما كان صديقه واقفًا في الطابور الطويل أمام شباك التذاكر، فإذا العقاد يحييه ويقول له: مالك هكذا متأخراً؟ وبعد أن دخل وجلس دقيقتين، خرج إلى صديقه ليصحح ما كان لا يحتاج إلى تصحيح من عباراته، إذ قال له: أقصد أنت متأخر في ترتيب الواقفين أمام شباك التذاكر فقط، أما كلمة متأخر على إطلاقها، فلا يمكن أن تطبق عليك"

ولكن العقاد قد أذى الكثيرين وجرحهن بكلمات كأنها الخناجر، وهاجم كثيرًا وعنف كثيرًا، فكيف يتواءم الكلام وينسجم مع دعوانا بتصدره في عالم الإحساس والشعور؟! وها هو يوضح لنا أنه لا يصب غضبه على مستبد أو ظالم أو أي إنسان، إلا حينما يراه يستحق هذا العقاب وهذا الغضب، فهو يقول:" لكنني كنت أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنسانًا قط معاملة صغير أو حقير، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب"

ثم يلمح العقاد إلى بعض إنسانيته وتفاعله مع الأحداث المؤثرة التي يتناولها بقلمه، وينفعل لها أشد الانفعال، وما هذا إلا لأنه إنسان حساس من الدرجة الأولى، وأن هذا القلب الكبير ما هو إلى بوتقة عامرة بالإحساس والمشاعر، فيقول: ربما كتبت الفصل وعيناي مغرورقتان كما حدث في كتاب أبي الشهداء، وربما كتبت المقال وفي نفسي مغالبة عنيفة للبكاء، كما حدث في مقالات الرثاء للمازني والنقراشي وغاندي وسعد زغلول.

وبعد.. هل سمعت قبل ذلك عن كاتب يبكي انفعالًا بما يكتب قلمه، إلى أن يكون كما ذكرنا عالي الإحساس غامر المشاعر؟!

لا تنس أبدًا أنك إنسان

إلى الذين يستحقون نياشين الخسة والحقارة.!

إن الإنسان الحقير الكريه الذي تلفظه نفسي، ولا تطيق رؤيته عيني.. ذلك الذي يكفر بفضيلة الستر ويبادر بفضح الناس، إن علم من أسرار حياتهم وخصائصهم خبيئة أو نقيصة، فلا يرحم مشاعرهم أو يشفق على سمعتهم غير عابئ بضعفهم وعجزهم، والظروف العصيبة التي ربما دفعتهم لهذا المكروه أو هذا الخطأ.

وبحكم وجودي في العمل الصحفي، والذي يهتم بدنيا الناس وشؤونهم وأخبارهم، أبصرت كثيرا من هذه الرزايا، التي يتسم بها صحفيين لا خلق لهم ولا شرف ولا إنسانية ولا رحمة، ممن يعشقون فضح الناس وتجريسهم في الصحف، ودهس مشاعرهم وتحطيم سمعتهم أمام المجتمع بنشر ذلة، أو سر من الأسرار التي لا يحبون أن يطلع عليها الناس.

وهؤلاء الصحفيين هم أجدر من يستحق نياشين الخسة والحقارة عن جدارة، وأولى بالمجتمع أن يطردهم من حياته، لأنهم يسممون أخلاقه، ويفسدون فيه موازين القيم.. ربما تصفق الدنيا له، وتعطيه الصحيفة التي فضح على أوراقها مشهورا من المشاهير، أو عائلة من العائلات، مكافأة وجائزة، ربما يصفق له أصحابه ويقابلونه بالتباريك والتهاني والغبطة والابتسامة، ربما ينتشي لأن الدنيا كلها تتابع ما كتبه، وتقرأ اسمه على ما نشر، وما حقق من سبق غير مسبوق، ربما كل هذه الاشياء التي تبهج نفسه وتجعله سعيدا، لكنه في غمرة هذه البهجة وهذه السعادة التي بنيت على أناقض الشرف والضمير، لا يعلم أنه لابد له أن يحزن ويبكي، لأنه خسر إنسانيته، وخسر معالم المروءة والرجولة والشرف والضمير، الذي مات وخلف هذه النفس الجشعة، تلهث في أنانية وانتهازية، وتحيا على آلام الناس ومشاعرهم المجروحة، ونحب هنا أن نذكر بدروس أو مواقف للصحفيين الشرفاء، عل هؤلاء الانتهازيين الفجرة يخشعون لله ويتذكرون قدرته، وتنطفئ في أجوافهم الملعونة نيران الانتهازية والتسلط والعدوان على حرية الناس وهتك أستارهم وتتبع عوراتهم.

انظر هنا فهذا ملك الصحافة الاستاذ محمد التابعي، الذي لم يفته أن يضع الموازين الانسانية لمن يعملون بهذه المهنة .!

لم يفته أن يعلم من بعده أن الانسانية فوق كل شيء وقبل كل شيء، لقد اشتغل بالصحافة عقودا طويلة، وعرف فيها عشرات الزعماء والسياسيين، وكان بعضهم يفضي إليه بأسرار كثيرة أو يكشف أمامه خفايا ضعفه، فلم يكن يستغل هذا ليروي عنهم ما عرفه واكتشفه وأظهروه له، لأنه كان يعتبر ذلك خيانة للأمانة، ولم ينس أبدا أنه إنسان أمام السبق الصحفي أو النجاح الاعلامي.. يقول التابعي: لقد قابلت ملك الأفغان أمان الله مرتين في سويسرا وزيوريخ، وكان كسير الخاطر محطم الآمال، ويمشي تحت وابل من المطر لكسر الوقت حسب تعبيره، كتبت عنه مرتين ورويت الحديث الذي دار بيننا، إلا جزءا خاصا بزوجته السابقة الملكة ثريا، وهذا أبقيته حتى اليوم في صدري وكتمته ولم أنشره، لأنني لم أستطع أن أنسى قبل أن أكون صحفيا أنني إنسان، وفاروق الطاغية، لا أستطيع أن أكتب وأروي عنه لأنني إنسان لقد قاومته وحاربت طغيانه، قدر ما استطعت وهو ملك وحاكم بأمره، وكتبت عنه بعد خلعه وطرده، كتبت ولم أرحمه وأسهبت في سرد قصص مخازيه وفضائحه، ومع ذلك فإنني لم أنس في كل ما كتبت أنني إنسان، فلم أذكر مثلا لماذا بكى يومئذ في دار بالإسكندرية عام 37؟ لم أكتب وأذكر التفاصيل لأنه بكى ساعتئذ كإنسان لا كملك.

هكذا شرح التابعي وعلم سالكي المهنة ولفتهم لأهم دروسها وواجباتها أن لا ينسى أحدهم يوما أنه إنسان.

ويحضرني في هذا قول أحد الصحفيين الكبار، والذي يوافق فيه التابعي : "إنني أفضل أن أكون إنسانا ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية، على أن أكون أشهر صحفي في العالم، لا يكون ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والامانة الصحفية "

أيها الصحفي المخدوع ببريق الشهرة وانبهار المجتمع بما كتبت وقصصت.. ربما لا تلتفت لكلام التابعي ودروسه، وتعتبرها هلوسة لا تقبلها الزمن ولا الأيام، ربما تنحيها خلفك لأنها تعيق مستقبلك الذي لا تراه يقوم الا على الفضائح والجرس والتجريح والتعريض، ربما تفعل ذلك، لكنني على يقين كبير أنك يوما ما ستندم أشد الندم، حينما يحيا ضميرك الميت بقدرة الله، أو يستيقظ من ثباته العميق، لتعض أناملك وتمزق نفسك حزنا واستقباحا على ما فعلت وما كتبت، تماما كندم الاستاذ موسى صبري وهو يحكي لنا عن ألمه النفسي الذي يمزقه حينما نسي إنسانيته لحظة أمام سبق صحفي يحقق له الانجاح والتفوق، يقول في مذكراته: لعلني تألمت من عمل صحفي جلب لي التهنئة، عندما طاردت سيدة بريطانية قدمت من انجلترا، خلال مرحلة العمل الفدائي في منطقة القنال، وقد ارتكب ولدها الجندي في القوات البريطانية جريمة استحق عليها الحكم بالإعدام، لست أذكر الان نوع هذه الجريمة، ولكن كل ما أذكره أنني طاردت هذه السيدة في أحد فنادق مصر الجديدة ومعي مصور (آخر لحظة) لكي نصورها وأحصل منها على حديث، وكانت هي في قمة آلامها لا تريد أن تواجه الصحافة، لقد جاءت للقاء أخير مع ولدها، قبل أن ينفذ عليه الحكم رميا بالرصاص، وحاولت السيدة التهرب من الصحافة وسط إجراءات أمن مشددة، لكنني تحايلت على الاختفاء في ركن مستتر من سلم الفندق، ولما اقتربت مني وكان الوقت ليلا، ظهرت أمامها فجأة ومعي المصور، وأطلقت صرخة فزع وصرخت، ابتعدوا عني ؟ احترموا قلب الأم، ولكنني وفي نشوة الانفراد بالصورة الصحفية، لم أبتعد ولم أحترم قلب الأم، والتقطت الصور ثم هربنا من مطاردة الامن وعدت إلى أخبار اليوم سعيدا بهذا النجاح وتلقيت التهنئة عندما انفردت آخر لحظة بصورة هذه الأم وهي صارخة فزعة، ولكنني في لحظة صفاء بعد ذلك أصابني ألم عظيم، وماذا لو لم ننفرد بهذه الصورة التي عجزت عنها وكالات الانباء العالمية؟ ماذا لولم تنشر أصلا؟ إن الثمن هو ضربة إلى قلب أم جاءت من آخر الدنيا لتقول للابن: وداعا.. بل لعلها تصورت أننا وحوش."

لحظات كثيرة في حياتنا نغفل فيها عن ضمائرنا، ونعطي الاحساس بقلوبنا إجازة من موازين تصرفاتنا وأفعالنا، تسيطر علينا شهوتنا من الأنانية والأثرة والرغبة في النجاح والسيطرة وحب الظهور وجمع المال، ولكي نلبي هذه الرغبات نفعل أو نرتكب حماقات نندم عليها بعد فوات الأوان، وهو الوقت الذي يستيقظ فيه الضمير الذي أغراه العمر ورحيق الشباب؛ عن حقيقة الحياة وماهية الدنيا.

نعرج ثانية على ما كتب الصحفي الشهير موسى صبري مذكراته، التي حكى فيها مشوار كفاحه ونجاحه الصحفي منذ أن كان يطرق أبواب الصحف يستجدي العمل من أصحابها، إلى أن صار أبرع وأشهر صحفي عرفته مصر، وفي نهاية المذكرات كان لابد له من وقفة مصارحة ومكاشفة معه نفسه بعد هذا المشوار الطويل، فكتب في نهاية المذكرات هذا التساؤل الذي قال فيه:

"هل أنا الملاك الذي هبط إلى بلاط صاحبة الجلالة متجرداً من كل الأخطاء والخطايا، مقدما دائما في سلوكه وسطوره كل ما هو جميل وظاهر ونقي؟! ألم تطارد صدري حراب الندم على تصرف خاطئ، أو كلمة ظالمة، أو اقتناع أناني، أو تسخير للكلمة في غير هواها الشريف الشفيف؟ إنني أحاول أن أجلس على كرسي الاعتراف، لكي أمارس المواجهة الصعبة.. حساب النفس"

وهذا دوماً حال الانسان بعد مسيرة العمر الطويل الحافلة بالأعمال والاحداث والمواقف، حيث يبدأ في الاسترخاء والخمول والهدوء، ويستعيد أمامه شريط الذكريات في خياله مرة أخرى بعد مرور السنين وربما العهود، ومع هذا السكون والخمول الجسدي، تبدأ ومضات الضمير والاحساس والألم النفسي، تنبعث شيئاً فشيئاً وتتوهج وتشتعل، كلما رمتها الذاكرة بموقف قاس لم يكن فيه صاحبه على المستوى اللائق بكلمة إنسان، وكل ما كان يحدث في الحياة وتنتشي له النفس من ظلم وكبر وغطرسة وأنانية وبطش وإيذاء، سيتحول كله إلى جمرات أليمة، تقذف الضمير وتفتك بالقلب وتحرق صاحبها ليل نهار.!

الصراحة والوقاحة

شيء جيد أن تكون صريحًا واضحًا، ولكن ضع في بالك أن هذه الصراحة يمكن أن تتحول إلى وقاحة وصفاقة، وجرح لمشاعر الناس، فالصراحة إذا لم تتحل بالأدب والاحترام، والحرص على أحاسيس الناس، كانت وقاحة فجة وشرخًا في الأدب والفضيلة، تجعل صاحبها إنسانا قميئا منبوذا مكروهًا، وهي من حبائل النفس الماكرة، التي تخدع صاحبها، وهو ينتشي بين الناس ويتفاخر بأنه صريح، وتسوقه فلا يلجم لسانه عن طرح كل ما يبعث به عقله، فلا يعبأ بكرامة الناس ومشاعرهم، وهو يُجرّح فيهم بسهامه النافذة.

نعرف أن نفوس الناس وحياتهم تذخر بالعيوب الكثيرة، لكننا يجب علينا قبل أن نعلم هذا، أن ندرك أن هذه العيوب لها أساليبها التي نتعامل بها معهم في نصحهم وردعهم، ولا نسمح أبدا لآرائنا وألسنتنا أن تتحول لسياط تلب وجدان الناس وتجرح دواخلهم.

عرفت واحدًا من هؤلاء كان من أقربائنا، لكن لسانه كان وقحا منفلتا، لا يتورع عن مواجهتك بأي ظن أفرزته تصوراته الخاطئة فيك، كان يصدمنا كثيرا بآرائه وانتقاداته وأحكامه فينا، بفجاجة منقطعة النظير، ووقاحة بالغة التأثير، وكم كنت أرى شموخه واعتزازه بذاته وهو يسمع حوله بعض أصحاب العقول الناقصة، وهم تصفونه بأنه صريح يقول الحق مهما كان، ومهما تعذر، والحق أنه لا يقول الحق، لأن الحق لا يكون أبدا غبيا يفتقد ناطقه بالحكمة والرشد.

يقولون في تعريفهما:

الصراحة: هي إبداؤك لرأيك بكل صراحة، مع مراعاة شعور طالب الرأي منك وعدم تجريحه والتركيز على الإيجابيات.

أما الوقاحة: فهي رأيك مع التجريح والتركيز على السلبيات.

خيط رفيع بينهما ،ولكنه كحد السيف جرحه عميق لا تداويه كلمات ولا تُضمده كل الاعتذارات.

"إن الكلمة الطيبة التي يستحضرها عقل واعٍ، وينطقها لسان فصيح بلفظ مليح، كفيلة بأن تُخرج من الناس أجمل ما عندهم، وأن تسوقهم سوْقا كريما لكل ماهو جميل

إن حسن البيان، وجودة الإفصاح بغية الإقناع بالحق، فنٌّ لا يتقنه كثير من الناس، والكلمة الطيبة لها أثرها في القلوب وتأثيرها في النفوس، وإن كلمة الحق لم تمنع رسول الله، صلى الله عليه وسلم من مخاطبة المقوقس بلقب عظيم القبط، ولا كسرى بعظيم فارس، وما في ذلك من دلالات نفسية ودعوية، بل وإن تشريع الإسلام مصرفا خاصا من مصارف الزكاة لمن سماهم (المؤلفة قلوبهم) لهُو تأكيد على مراعاة العامل النفسي ليس في الدعوة فقط، بل في العلاقات العامة على وجه العموم، وهذا مما أكد عليه القرآن في مواضع، منها قوله عز شأنه؛(وقولوا للناس حُسْناً)، وقوله: (وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين)، والإحسان هو التمام في الخير"

وقد حملت لنا كتب الأدب العربي مواقف تبين عن أثر الكلمة، وتكشف عن جلال قدرها، ومن أطرفها الحكاية التي وردت في أكثر من مصدر عربي عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

قال الرواة: إنه عندما استخلف عمر بن عبد العزيز، قدمت إليه وفود من سائر الجهات، كما كان معتادًا، لتبايعه وتهنئه، قالوا عندما وصل وفد من الحجاز، أشار غلام منهم بالكلام،

فقال له الخليفة: يا غلام، يتكلم من هو أسن منك.

فقال الغلام: «يا أمير المؤمنين، إن المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فإذا منح الله تعالى عبده لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد أجاز له الخيار، ولو أن الأمور بالسن لكان في الناس من هو أحق منك بمجلسك».

فقال عمر: «صدقت، فهذا هو السحر الحلال».

فقال: يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد التعزية. إنا قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك. أما الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا. وأما عدم الرهبة فقد أمنا بك في جورك بعدلك. فنحن وفد الشكر والسلام.

يروي الأبشيهي صاحب «المستطرف في كل فن مستظرف» فيقول: إن عمر بن عبد العزيز سأل الصبي الغرير وقال له «عظني يا غلام».

فقال الغلام، غير آبه أو هياب: «يا أمير المؤمنين، إنَّ أناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون).

عندئذ نطق الخليفة الورع فأنشد الحاضرين هذين البيتين من الشعر:

تعلم فليس المرء يولد عالماً

وليس أخو علم كمن هو جاهل

فإن كبير القوم لا علم عنده

صغير إذا التفت عليه المحافل

فإن كان المرء لا يحسن الكلام، فما عليه إلا أن يلوذ بالصمت، فإن من صمت نجا، وليستحضر قول القائل:

خَلِّ جنبيْك لرامِ

وامض عنه بسلامِ

مُتْ بداء الصمت

خيرٌ لك من داء الكلامِ

إنما العاقل من

ألجمَ فاهُ بلجامِ

نوبل في الانسانية

عن أنس بن مالك τ قال: (كان رجل من أصحاب النبي ^ من الأنصار يكنى (أبا معلق)، وكان تاجرًا يتجر بماله ويضرب به في الآفاق، وكان ناسكا ورعا، فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلى دمي! شأنك بالمال، فقال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك، قال: أمَّا إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات؟ قال: صلِّ ما بدا لك، قال: فتوضأ ثم صلَّى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: (يا ودود! يا ذا العرش المجيد! يا فعَّال لما يريد! أسألك بعزك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شرَّ هذا اللص ، يا مغيث أغثني ! ثلاث مرار) قال: دعا بها ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة واضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم؟ قال: أنا ملَكٌ من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب، فسألت الله تعالى أن يوليني قتله .

قال أنس τ: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب)

ورغم أن في إسناده كلاما وأراء، لا أعرف لماذا قفز في ذهني هذا الحديث، حينما قرأت مؤخرًا هذا الموقف الإنساني التاريخي الفريد، الذي قامت به فتاة سويدية عشرينية، لاغية في اعتبارها أي عنصرية أو تحيز أو عداوة أو بغض أو انجرار أعمى وراء تزييف إعلامي وتشويه ظالم لصورة للإسلام

والمسلمين؟ فقط لم يكن في حسابها إلا مقياس الإنسانية والرحمة والشفقة على إنسان يصير إلى طريق مجهول ونهايته خطيرة مظلمة.

(إيلين أرسون) تلك الفتاة السويدية الصغيرة، قررت أن تقضي عطلتها في تركيا، واستعدت للسفر وذهبت للمطار، وحينما صعدت إلى الطائرة، وجدت فيها رجلاً خمسينيًا يتم ترحيله لبلده الأصلي أفغانستان، بعد أن رفضت السلطات السويدية منحه حق اللجوء.. استرعاها المشهد، وهمت بسرعة واعترضت على ترحيل هذا الرجل، وقالت: لن يتم ترحيله أبدًا لأن أفغانستان خطر وحياته ستتعرض لهذا الخطر، ووقفت داخل الطائرة، ورفضت الجلوس على كرسيها، ومنعت الطائرة من الإقلاع، وكانت متوجهة من مدينة غوتنبرغ إلى إسطنبول (ترانزيت قبل أفغانستان)، لم يمر الأمر بهدوء، حيث تعرضت لكم كبير من التهديدات من طاقم الطائرة والشرطة، والذم والتوبيخ من الركاب، ولكنها أصرت وشرحت لهم رأيها، حتى تعاطف معها كثير من الركاب، وفعلا لم تقلع الطائرة.!

وانتشر الفيديو كالنار في الهشيم بوسائل التواصل الاجتماعي، وهو ما أثار تضامنًا واسعًا مع ما قامت به الفتاة من عمل إنساني، ووصفها البعض بالملاك السويدي.

وقالت إيلين حسب ما جاء في الأنباء، وهي تقف في ممر الطائرة بين مقاعد الركاب: أبذل قصارى جهدي لإنقاذ حياة هذا الرجل حتى لا يعود إلى الجحيم، إن أفغانستان تشهد حربًا، فإذا عاد هذا المهاجر إلى بلاده قد يواجه الموت هناك، لكن الرجل الأفغاني قال لها: إن هذا قانون بلدك، فردت عليه الفتاة: أنا أرفض مثل هذا القانون، قد أُزعج سائر الركاب، ولكنهم لا يريدون أن يواجهوا الموت مثل هذا الرجل، وبعد دقائق أعلن عدد كبير من الركاب تضامنهم معها، حيث نجحت في نهاية المطاف أن ينزل الطيار طالب اللجوء من الطائرة، وسط تصفيق الركاب، وبعد ساعات كتبت إيلين إيرسون على فيسبوك: لن يطرد طالب اللجوء الأفغاني من السويد، وعادة ترفض السويد

منح اللجوء لمواطني البلدان التي تعتبرها.. لا تشكل خطرًا على حياة طالبي اللجوء القادمين منها.

هذه هي الإنسانية، وهذا هو الإنسان في رقيه وسموه، هذه هي الفطرة النقية، التي تتحلى بالرحمة والشفقة والعطف على البشر، هذا هو الخلق الذي نطق به إسلامنا العظيم وحث عليه، يفعله اليوم ويتحلى به غير المسلمين.. بينما أهله وأصحابه ومن يدينون به، صارت قلوب بعضهم كالحجارة أو أشد قسوة، حين تتفجر فظاظة وغلظة، وتتوق وتسعد لموت وفناء كل من يعارضها أو يختلف معها في الرأي لا في الدين!

تُرى.. هل قام هذا الرجل الأفغاني المسلم ودعا بالدعاء الوارد ذكره، فأرسل الله له هذا الملاك وهذه الفتاة الرحيمة، التي سجلت لبلادها في ميدان الإنسانية، أعظم موقف في القرن الحادي والعشرين.! إن الفتاة التي لم تصل لله ركعة، كانت أبر بالإنسان من كثير ممن يتسمون بأسماء الإسلام.! كما لا ننسى أبدًا أن نبخل بالثناء على أمتها وحكومتها، التي سمحت لها أن تفعل ذلك، وربتها على ذلك، وقبلت منها اعتراضها وإرادتها التي صممت على تحقيقها.

إنهم يفوزون بنوبل في الأدب والسياسة والسلام والعلم، فلماذا لا يسجلون جائزتها في الإنسانية، وتمنح لصاحب أعظم موقف إنساني في العام، ومن المضحك أن الغرب الذي يهزمنا عسكريًا واقتصاديًا، يُصر على أن يهزمنا إنسانيًا، حتى خسرنا أمامه كل شيء.. وا أسفاه على أنفسنا، وكأن هؤلاء الناس يعيشون في عالم، ونحن نعيش في عالم آخر.! أدرك أن شرورهم يستعر منها العالم قديما وحديثا، حينما ملأوه احتلالا وعدوانا، ولكنهم في بلادهم يضربون مثلا تهز كيان الإنسانية.!

سؤال يحيرني؟!

سؤال يحيرني ولم أقف له على جواب شافٍ، فهل يا ترى أجد الإجابة لديك أيها القارئ العزيز.؟!

من قديم وأنا أتساءل: كيف لهذه الأمم الغربية، أن تصل لما وصلت إليه من تكريم الإنسان واحترام آدميته، وتقرير حقوقه في مجتمعاتهم، ومع هذا يُهينون ذات الإنسان، ويهدرون آدميته في معاملاتهم مع الشعوب الأخرى؟!

أليس الإنسان هو ذات الإنسان، في قارات العالم وبلدانه، بشحمه ولحمه وعظمه وحسه و وجدانه ؟!

هل يمكن بكل هذه البساطة أن يتجزأ التصور للبشر، فنجد منهم من يستحق لقب إنسان، وغيرهم لا يستحقونه؟!

لا شك أنه انفصام في التصور لمعنى الإنسان، وفي غمرة هذه الحيرة، وهذه المفاهيم الكارثية، لا يسعني إلا أن أقول: إن ديننا جعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يُفرق بين البشر أسودهم وأبيضهم ، عربهم وعجمهم، وهي القيمة التي يستحيل أن يؤمن بها الغرب أو يطبقها في حياته، لأنهم يرون أن إنسانهم هو الإنسان الذي يتمتع بكل حقوق الحياة والآدمية، أما غيره فلا قيمة له، وغير محسوب على العنصر البشري.!

حتى القانون الدولي حينما وضعوا أسسه وأقروا بنوده، وضعوها لتكون حكراً عليهم وحدهم، ولا تجوز للأمم الأخرى، فلا يرون أن تُعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية، وفي هذا ينقل الدكتور (عبد الودود شلبي) في سفره القيم (أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية) نقلاً عن الدكتور (حافظ غانم) قوله:

(منذ نشأ القانون الدولي الحديث، كان من المقطوع به اعتبار الأمم الإسلامية خارج نطاقات العلاقات الدولية، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون، وعلى هذا الأساس ،لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية، فـ(جروسيس) أبو القانون الدولي قال: بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية، و(جنتيلس) هاجم (فرانسوا الأول) ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام 1535م، ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين، ومع أنها

أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام ، فقد كانت هذه المعاهدة مرفوضة لأنها مع ملك أمة غير مؤمنة)

والأدهى من ذلك أن تقوم لديهم منظمات لحقوق الحيوان، قد تُقيم الدنيا وتقعدها إن تعامل أحدهم بخشونة أو قسوة مع حيوان أعجم، بينما الآذان الصُم واللامبالاة المفرطة، تجاه ما يرون من مذابح تطال الإنسانية صباح مساء وعلى أيديهم.!

وفي صحيفة (الشرق الأوسط) هذا الخبر في صفحتها الأخيرة عن البرلمان الإسباني الذي قامت قيامته ليمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وقال الخبر: (على الرغم من تزايد الاحتجاجات في إسبانيا وخارجها ضد اضطهاد الحيوان، وخاصة طريقة معاملة الثيران، فإن البرلمان الإسباني صوت ضد مشروع قرار يمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وكانت بعض المنظمات الإنسانية وجمعيات الرفق بالحيوان، قد نشطت في الفترة الأخيرة، من أجل منع مثل هذه الألعاب، وأيدتها الأحزاب اليسارية والمهتمة بالبيئة ثم انضم إليها الحزب الاشتراكي، لكن الحزب الشعبي الذي يسيطر على البرلمان بأغلبية مطلقة أحبط هذه المحاولة، بمعارضته مشروع القرار، متعللا بأن هذه الألعاب هي جزء من التراث الشعبي الإسباني.

ورد عضو البرلمان عن الحزب الاشتراكي، (أليخاندرو ألونسو)، قائلاً: بإن المسألة ليست متعلقة بمنع الاحتفالات الشعبية، وإنما تتعلق بوضع حد للمعاملة السيئة للحيوان، وتساءلت النائبة عن حزب الخضر الكتلاني (لايأورتيث): لا نفهم كيف أن القانون الإسباني يعاقب المسيئين للحيوان، كما هو الحال في معاقبته لكل من يسيء معاملة الكلب؟ وفي الوقت نفسه لا يعاقب من يسيء معاملة الثور؟! كما هاجمت الاحتفالات المعروفة باسم احتفالات «تورو دي لا بيغا» القائمة على أساس ضرب الثور حتى الموت، ووصفتها بأنها: احتفالات حقيرة وقاسية وبربرية.

وكان 140 باحثا وأكاديميا من ثماني عشرة دولة قد بعثوا برسالة إلى البرلمان الإسباني يحثونه على سن قانون يبعد القاصرين عن مشاهدة مثل هذه الألعاب، لما قد تخلفه من آثار نفسية شديدة عليهم، وجاء في الرسالة: إن السياسيين يتحملون مسؤولية كبيرة في بناء شخصية الأطفال النفسية، وفي غرس المبادئ الإنسانية فيهم، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: أي رسالة نرسل لأطفالنا عندما نقول لهم: إن ممارسة العنف ضد الحيوان هي جزء من لذتنا وأفراحنا؟! وكانت قد سبقتها دعوة منظمات إنسانية قامت بجمع 256 ألف توقيع من 135 بلدا لحث البرلمان على منع أي نوع من أنواع الإساءة للحيوان..)

وهكذا أضحى الإنسان في أمم الأرض، لا يرقى أن يماثل الحيوان عند الغربيين، فيجد من يدافع عنه أو يفكر في رحمته، هذا الإنسان الذي كرمه الله تعالى، يُهان ويُذبح ويُنكل به كل يوم، أما الحيوان فيحفونه برعايتهم وتقديرهم ويضمنون له حقوقاً وواجبات، فياله من منطق أعور، وعقل فاسد وتصورات ضالة آثمة.

وهي نفس الدهشة التي أصابت هيكل باشا صاحب كتاب (حياة محمد)، حيث يروي الأديب الكبير (ثروت أباظة) ما قاله هيكل باشا حينما كان في زيارته حيث قال له: (سأقص عليك قصة، كلما رويتها أعجب بأبطالها وحزنت لأنهم كانوا غزاة محتلين، يراعون العدل مع الأفراد ولا يراعون العدل مع الأمم، ففي يوم من الأيام جاءني استدعاء إلى محكمة الإنجليز العسكرية، وحمل الاستدعاء ضابطان بريطانيان صحباني في سيارة محترمة إلى المحكمة، وجلست في مقاعد المحامين حتى جاء دور القضية، التي طلبت من أجلها، فنودي اسمي ومثلت أمام المحكمة، وأمسك القاضي بجريدة السياسة وسألني، هل أنت رئيس تحرير هذه الجريدة فقلت: نعم قال أهذا يصح؟ وأشار إلى مقالة قرأت عنوانها فعرفتها، وكانت مقالة يهاجم فيها د.(طه حسين) الأستاذ (محمد أبو شادي)، وكان الإنجليز يعتقلونه عند ظهور المقالة فتعجبت، ما هذا الذي لا يصح؟

إننا نهاجم رجلاً أنتم تعتقلونه، ماذا في هذا ؟ فقال القاضي: في هذا أننا نعتقله، ألا تدري أننا حين نعتقله، تصبح كرامته أمانة في أيدينا، كيف تهاجمون شخصاً لا يملك الرد عليكم؟ فقلت في سرعة: من هذه الناحية أنتم محقون، وأعدك ألا يتكرر هذا، فقال: شكراً وانصرفت وأنا أتعجب، كيف يكون للإنسان عندهم هذه القدسية، وتجدهم في معاملتهم للدول، قراصنة بلا خلق ولا ضمير على الإطلاق)[1]

إنها حادثة أثارت العَجب في نفس الأديب الكبير، و عجز عن تفسير هذه التركيبة المحيرة التي تميز بين البشر في مواطن.. وتهدرهم في مواطن أخرى، مع أنهم نفس البشر.!

ولعلي أقف بك أيها القارئ على شيء أدركته، فهذه الثقافة العنصرية الغاشمة، لها جذورها العميقة في تاريخهم، فبعضها عقدي وبعضها وضعي، فإذا ما نظرنا للقانون الروماني الذي تُفاخر به أوروبا، حيث كان يطبق على المواطنين الرومان من أبناء روما والجاليات الرومانية المقيمة في الخارج دون بقية السكان، باعتبار أن غير المواطنين الرومان من بقية السكان ليسوا أهلا للوصول إلى هذه الدرجة، والحصول على هذا الامتياز !

إن هذا التناقض أصيل في تاريخ هذه الشعوب ومعتقداتها، وليس وليد اليوم، ورغم هذا القدم لا نجد جواباً شافياً لتفسير هذه الازدواجية في التفكير؟!

احتكار الإنسانية

كان هناك حوار بين الرحالة والداعية المسلم التتري (عبد الرشيد إبراهيم) وبين أحد الفرنسين الذين التقى بهم في القطار عبر رحلته من أوفا إلى جيلاني، لقد أصابه عبد الرشيد في مقتل حينما حاول الفرنسي أن ينتقد الشعوب الشرقية ويظهر شيئا من عوارها، يقول عبد الرشيد : (سألني الرجل الفرنسي ما سبب كثرة المعوزين من الفقراء والمحتاجين بين التتار ؟ الشعب الأسير سيكون فقيرا ذليلاً لا يستطيع أن يتصرف بما يملك، والتتار سلالة

[1] - ذكريات لا مذكرات – ثروت أباظة

تركية، والأتراك يهتمون بالنظافة كثيراً ، وأظن أن قومك التتار لا يهتمون بالنظافة .؟!

فقال عبد الرشيد: الأتراك العثمانيون يهتمون بالنظافة لأنها من أركان الإسلام، لكننا هنا ومنذ أن تسلط علينا النصارى فنحن قذرين مثلهم..(يقصد الروس)

قال الفرنسي: هل لكم مدارس كثيرة؟ قال عبد الرشيد مدارسنا الابتدائية كثيرة، وليس بعدها شيء، الفرنسي: كم عدد الذين يقرؤون ويكتبون منكم ؟ عبد الرشيد: خمسون في المائة أو ستون؟ الفرنسي: عظيم أنكم متقدمون على الروس كثيراً، إذن فلماذا لا تؤسسون مدارس ثانوية وعليا؟

عبد الرشيد: لن تسمح الحكومة بذلك، ومع هذا فقد افتتحت في السنوات الأخيرة عدة مدارس يمكنها سد الحاجة..

الفرنسي : كم عدد نوابكم؟

عبد الرشيد: ثمانية

الفرنسي: إنه لأمر عجيب حقا! مليونان من الناس لهم ثمانية نواب ذلك ظلم فاضح..

يقول عبد الرشيد: وهنا اغتنمت الفرصة وقلت له: إذا وجدت القوة فلا تسل عن الحق، إن شعبكم الفرنسي يعامل مسلمي الجزائر كالبهائم، يسبون دينهم، ويدوسون حقوقهم الإنسانية بالأقدام، فإذا استسيغ مثل هذا الظلم من شعب متحضر مثل فرنسا، فلا يجوز لنا أن نلوم الروس على أفعالهم، وبدأ الامتعاض على وجه صاحبنا فاستأنف قائلاً: ما يسميه الأوروبيون بالحضارة هو مجرد قناع، أو وسيلة للظلم فلا راحة للضعفاء ما دام الحكم للقوة، وفي هذه الأثناء وصل القطار إلى جيلاني، فجمعت أمتعتي وودعت أصحابي ونزلت من القطار" وقد كان الرجل صادقا مع نفسه ولم يكابر، وإنما اعترف أمام حجة عبد الرشيد بحقيقة الأوروبيين الهمجية.

وللشيخ الغزالي تعليق حول هذا التناقض لا بد من ذكره، ففي كتابة القيم (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) يقول: (إننا ما ننكر التفوق الغربي في النواحي السياسية والاجتماعية، لكن فضائل الديمقراطية محظور تصديرها للخارج،

وإنني أغبط أسرة الدول الأوربية الغربية على اختفاء المستبد من ربوعها، وعلى استقرار المجالس التشريعية، وتنفس كل إنسان في جو من الحريات الموطدة وتنافس الملكات الذكية في الخدمات العامة، إن المظالم- فردية كانت أو اجتماعية - مرفوضة رفضاً قاطعاً، والرقابة على المال العام صارمة ، وإحساس كل امرئ بامتداده ليس أمامه عائق، الشيء المستغرب أن حملة هذه الحضارة يحتكرون الصنف لأنفسهم، وتنقلب موازينهم عندما يعاملون غيرهم ، إن أوربا للأسف تعرف الدين عملياً عندما يقع النزاع بين العرب واليهود ! أو عندما تريد توسعة أملاكها وراء البحار، وتشد عربات كثيرة في قاطرتها المنطلقة... إنها عندئذ تجتر ذكرياتها التاريخية ضد الإسلام، وتنسى الصدق والعدل في كل قضية للعرب والمسلمين، ولا تبالي بمستقبل الفلسطيني التائه، أو الأفغاني المحروب، أو أمثالهما من الجماهير التي وقعت في براثن الاستعمار، وكانت تعتنق الإسلام)[1]

يقولون: إن في داخل كل إنسان طاغية ينتظر الظهور.. هناك ديكتاتور في داخلنا ينتظر الوقت المناسب والسلطة المناسبة للتحكم بالآخرين، فنفعل تماما كما يفعل مدراؤنا ووزراؤنا حينما نصل نحن إلى الكرسي ونحل محلهم.

وما تظهر به المجتمعات المتحضرة ما هو إلا ادعاء وزيف، مثل الذي أقره ذلك الفرنسي الذي حاور الرحالة (عبد الرشيد إبراهيم) ؛ فأوروبا أنهت الحرب العالمية الثانية بأربعين مليون قتيل، وألمانيا على قدر رقيها وتحضرها، أحرقت بقية الأعراق في معتقلات الغاز، واليابان رغم أدب شعبها وخجل نفوسهم، ارتكبت في كوريا والصين بشائع يندى لها الجبين، والشعب الفرنسي رغم أنه أول من نادى بمبادئ الحرية والمساواة لم يعتق الجزائر قبل إزهاق مليون قتيل.. أما الأميركان فما يزالون أسياد الكيل بمكيالين، حين يتعلق الأمر بغزو الدول العربية والإسلامية.!

المعضلة تكمن في طبيعة الإنسان نفسه الذي لا يدرك أنه يتحول لطاغية بمجرد امتلاك سلطة مطلقة وغياب القانون والمبادئ العليا..

[1] - الغزو الثقافي - الشيخ محمد الغزالي

وهناك تجربة يرويها الكتاب حول هذا المارد الذي يقبع داخل النفس وينتظر لحظة الظهور ليفعل الأفاعيل التي كان ينكرها بالأمس، لقد (بدأت هذه التجربة بتساؤل أحد الطلاب (في إحدى المدارس الثانوية في كاليفورنيا عام 1967م:كيف استسلم الشعب الألماني المتحضر، لنظام هتلر النازي وسمح له بقتل هذا العدد الكبير من الناس؟

وكي يمنحهم فهماً أفضل اقترح عليهم مدرس التاريخ ويدعى (رون جونز) القيام بتجربة بسيطة تشرح كيف أن البشر بطبيعتهم ميالون للانقسام واضطهاد بعضهم لأتفه الأسباب.. وهكذا اتفقوا على تقسيم طلاب الفصل إلى جلادين متسلطين (4 طلاب) ومواطنين خانعين (12 طالبا) وأفراد مضطهدين (4 طلاب) لمدة ثلاثة أيام، وبسرعة غير متوقعة تحولت المجموعة الأولى إلى مجموعة قاسية تعامل الطبقة المضطهدة بقسوة مفرطة، وفي هذه الأثناء بقيت المجموعة الثانية (المواطنون الخانعون) تتخذ موقف المتفرج الرافض للتدخل (فمن شروط التجربة أن من يتدخل ينتقل تلقائياً للطبقة المضطهدة)..

والأكثر عجبا أن طلاباً من الفصول الأخرى، انضموا للطبقة المتسلطة (وأخذوا المسألة جد) وأصبحوا يتعاملون بشكل قاس وظالم مع المضطهدين الأربعة، دون أن يدفعهم لذلك خوف من عقوبة أو طمع في مكافأة..

ورغم أن إدارة المدرسة أوقفت التجربة، ونقلت الطلاب (المضطهدين) إلى مدرسة أخرى (كونهم أصبحوا مستباحين من قبل الجميع) أكدت التجربة ذاتها، سهولة انقسام المجتمعات المنهارة إلى ثلاث طبقات:

طبقة متسلطة صغيرة (تملك السلطة والسلاح)..

وطبقة صامتة متغاضية (تشكل الشريحة الأوسع من الناس)..

وأقلية مستضعفة يتم اضطهادها على أسس تافهه (عرقية أو مذهبية أو حتى تاريخية)..

ورغم إيقاف المعلم جونز عن التدريس، إلا أن تجربته لفتت انتباه الطلاب إلى أنهم تحولوا بدورهم إلى (نازيين) بلا سبب، وبلغ إعجاب علماء النفس بها حد تكرارها على نطاق واسع!)[1]

وهذا حال النفس إذا لم تتسلح بالإيمان والفضيلة والقيم، وتطغى وتستأسد على الضعفاء إذا ما تمكنت، وقد يكون في هذا جواباً على بعض ما نحتار فيه.!

مجرمون عبر الزمان

الغربيون يسِمُون الإسلام بالدموية، والمسلمين بالإرهاب،! وهنا نقول لهم: حنانيكم يا قوم.. أنسيتم ماضيكم المؤلم وتاريخكم البشع؟! الذي يحاكيه حاضركم المؤلم؟

إن الحروب الصليبية لم يشعل المسلمون أوارها، وإنما كان أجدادكم الصليبيون هم من تفجرت أطماعهم نحو الشرق، وتوالت أمدادهم الغاشمة من أوروبا تصحبها بركة الباباوات، وتحثهم على تصديع الشرق ومحو المسلمين واحتلال القدس.!

إن هذه الحروب سجل حافل بالجرائم والأهاويل، أما حاضر القوم فإنهم ما تخلوا عن صليبيتهم، فـ(اللمبي) ممثل الحلفاء، قال حينما دخل بيت المقدس: (اليوم انتهت الحروب الصليبية)، ومثله (غورو) حينما دخل دمشق، وعلى قبر صلاح الدين ردد قولته: (ها قد عدنا يا صلاح الدين)، وعلى دربهم سار الجزار الموتور (بوش)، ليعلن أن الحرب التي يخوضها في أفغانستان والعراق حرب صليبية، وبررها الإعلام الأمريكي بأنها زلة لسان، كما نطق بها وزير خارجيته (كولين باول) وصرح بـأنها حرب صليبية، ثم أعلنها (بيرلسكوني) صراحة، بأنها حرب على الإسلام، فالحضارة الغربية حسب قوله أعلى وأكثر تفوقًا من الإسلام، لأنه من وجهة نظره، لا يلبى حقوق الإنسان والتعددية والديمقراطية.!

[1] - من مقال لفهد عامر الأحمدي جريدة الرياض عدد 17111

وما نحن بما حدث في (البوسنة والهرسك) من سفك الدماء، واغتصاب النساء، وقتل العزل الأبرياء ببعيد، فما قام هذا الهلاك إلا باسم الصليب، لقد أعدموا الأسرى ذبحًا بالسكاكين، أو ضربًا بالمطرقة على الرأس، أو إغراقًا في الأنهار لتوفير الذخيرة، وبهذه الطريقة فضلاً عن قصف المباني السكنية والمدارس والمستشفيات، حتى استشهد ربع مليون مسلم بوسنوي بين عامي (1993-1995م).. أما النساء المسلمات فيستبقونهن على قيد الحياة لاغتصابهن! فتم اغتصاب أكثر من 25 ألف امرأة وفتاة حتى الأطفال اغتصبوهن بوحشية مفرطة.! وفي الشيشان وقعت آلاف من جرائم الاغتصاب الجماعي ضد المسلمات على أيدي الجنود الروس.

وأعدم الصهاينة عشرات الألوف من الأسرى المصريين في حربي 1956م و1967م بلا تحقيق أو محاكمات، وبعد تعذيب مروع سجلته تقارير المنظمات الدولية؟! هل حاسبهم أحد على إجرامهم؟.

(وأمام هذا الهدر الهائل لأروح البشر، نجد أن إجمالي ضحايا كل الحروب التي وقعت في عهد النبي ^ لم يتجاوز بضع مئات من الجانبين خلال عشر سنوات، بينما سقط أكثر من ستين مليونًا من الأوروبيين، ضحايا حربين عالميتين، فضلاً عن ملايين القتلى بالأسلحة القذرة المحرمة دوليًا، والتي استخدمها الأمريكان في اليابان وفيتنام والعراق وأفغانستان وغيرها، المسلمون لم يهدموا دور العبادة ولا المستشفيات ولا المدارس ولا المناطق السكنية، التي ضربتها الطائرات الأمريكية في العراق وأفغانستان، وجعلتها مقابر لعشرات الألوف من المسلمين، وكذلك دمر الصرب 360 مسجدًا في البوسنة، وقصفت إسرائيل المسجد الأقصى وهدمت أجزاءً من مبانيه، وضربت مدرسة بحر البقر في مصر)

وهناك عشرات من الجرائم اقترفت في حق البشرية تحت ستار التجارب العلمية، ومنها ما حدث قبل أكثر من 100عام فهناك خلق كثيرون تحولوا إلى

فئران تجارب، بل أدنى منزلة في نظر من طبقوا عليهم جرائمهم! وذلك إما للونهم أو لعرقهم أو لظروف سياسية.

وأبشع هذه التجارب أو الجرائم، ما جرى خلال الحرب العالمية الثانية من قبل الألمان، في سبيل إيجاد علاج لإصابات جنودهم خلال الحرب أو تطوير الأسلحة، ومع الأسف أن أغلب هذه التجارب، تمت في السجون والمعتقلات على أناس لا حول لهم ولا قوة، لا يملكون حتى حق الرفض! وكان المسؤول أو المشرف على هذه التجارب، المجرم أو الدكتور (إدوارد ويرث) فمن أجل أن يتعرف على تأثير الارتفاع الشاهق في الجنود الألمان، وأفضل الطرق لإنقاذهم إذا ما تحطمت طائراتهم وسقطوا من علو شاهق، قام هو والطبيب (سيجموند راشي)، بوضع السجناء في غرفة تحتوي على ضغط هواء منخفض، يعادل ضغط الهواء على علو 68 ألف قدم، ونتيجة لذلك لقي بعض السجناء مصرعهم، ومن بقي حيا أصيب بحالة شبه فقدان الوعي، لم يتوقف إجرامهم عند هذا الحد، بل قاموا بتشريح أدمغة الأحياء منهم دون تخدير! لمعرفة ماذا يجري مع الشخص كي يصل لحالة الإغماء، ومن بين 200 سجين طبقت عليهم التجربة مات 80 وأعدم البقية!

ولكن ماذا لو سقط طياروهم في المحيط أو تعرضوا لطقس بارد جدا؟!

الحل يكمن لدى المعتقلين، وليجدوا طريقة فعالة لإنقاذ طياريهم وجنودهم لجأوا لوضع السجناء بعد تجريدهم من كل ملابسهم أو بعضها، في أحواض ماء مجمدة لمدة تزيد على الخمس ساعات تحت مراقبة الطبيب المهووس، وهم يعتصرون ألما من البرد إلى أن فارق أغلبهم الحياة!

أما الدكتور (كلاوبيرج) فقد قام بما هو أبشع من ذلك، فبعد نجاحه في معالجة زوجة ضابط في القوات الخاصة من العقم عن طريق التلقيح الصناعي، اقترح عليه أحد أصدقائه في الجريمة الدكتور (هاينريش هيملر) أن تطبق هذه التجربة على المُعتقلات في السجون لدراستها بشكل مكثف، وقاموا بالفعل بتلقيح 300 سجينة.

لقد عانى هؤلاء النسوة أبشع أنواع التعذيب والقسوة فهي تحمل بين أحشائها قسرا وبطريقة لا إنسانية، وليتهم اكتفوا بذلك بل إمعانا في الجرم تم تلقيح النساء بسائل منوي أخذ من حيوانات مثل "الكلاب"، وتركت هذه الوحوش تكبر في أحشائهن!. هل نجحت العملية؟ وهل خرجت الوحوش للنور؟ وما مصير النسوة؟ هذا ما لم يعرفه أحد حتى يومنا هذا!

وصمة عار

ولكي تتبدى لنا عظمة الإسلام أكثر وأكثر، لابد أن نتطلع لشيء من أخبار الحضارات السابقة، التي تجردت من الرحمة والإنسانية، وعامل الإنسان فيها أخوة الإنسان، بما لا يعامل البهائم والعجماوات، بل كانت القسوة والوحشية والذلة والصغار، لتدرك إلى أي مدىً كان الإسلام دين الرحمة ودين الخلاص من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

يقول (محمد فريد وجدي: (كان الاسترقاق شائعاً بين الأمم قبل عهد الإسلام بألوف السنين، فكان قدماء الهنود والصينيين والمصريين والآشوريين والبابليين، والفرس واليونانيين والرمانيين وغيرهم يتخذون الرقيق من أسرى الحروب ، كما يحصلون عليه بالشراء من أصحاب النخاسة.

وكانت القوانين في هذه الأمم تعطى السادة كل حق على أرقائهم حتى حق قتلهم؛ فكان المماليك يجلدون ويعذبون لأقل هفوة، وكثيراً ما كانوا يقتلون لأتفه الأسباب، وكان الناس يسيغون هذه القسوة لاعتقادهم أن الأرقاء، وخاصة السود منهم، ليسوا من الأسر البشرية.

وقد اشترك الفلاسفة مع الدهماء في احتقار الأرقاء، حتى إن أفلاطون الفيلسوف اليوناني الكبير، وتلميذه أرسطو الملقب بأمير الفلسفة قررا فى تعليمهم أن العبيد يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية.

وقد نقل التاريخ أن الشبان في إسبارطا من الممالك اليونانية، كانوا يمرنون على الفتك بالأعداء في أشخاص العبيد، فكانوا يوقفونهم جماعات جماعات، عزلا من السلاح، ويأمرون شبانهم بالهجوم عليهم، والتنكيل بهم، فكانوا يقومون بما يؤمرون به، فتجرى دماء أولئك الأرقاء أنهاراً، بلا داعية معقولة غير تعويد الشبان على سفك الدماء، التنكيل بالأعداء.

وروى أن بعض أباطرة الرومانيين كانت له فرقة موسيقية من المماليك، فارتأى أن يبتر سواعد الضاربين على الآلة المسماة بالتروبيتا، وأن تربط مضاربها فى أعضادهم، لكيلا يتكلفوا ثنى أذرعتهم وهم يضربون عليه.

وكان نساء اليونانيين والرومانيين في ذلك العهد محجبات، فكان الرجال يتخذون الخصيان لخدمتهم، وكانت تزهق أرواح الألوف المؤلفة من الأطفال الذين يعدونهم لهذه الخدمة، بتأثير هذا العمل الجراحى الخطير الذى كان يزاوله رجال ليس لهم أقل علمٍ بالجراحة وتضميد الجروح.

ولما جاءت الديانتان اليهودية والنصرانية، تركت الاسترقاق على ما كان عليه، فبقى أتباعهما عاملين به إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر.

ولما اكتشف الأوروبيون أمريكا واستعمروها، وجدوا أنه تعوزهم الأيدي العاملة وخاصة بفلاحة الأرض وحفر المناجم، فكانوا يرسلون بسفنهم إلى شواطئ أفريقيا، فيشحنونها بمئات من الزنوج ويعودون بها إلى أمريكا، فيموت من هؤلاء السود من يموت في الطريق، فيلقون بهم في اليم، ويسخرون من بقى منهم في أشق الأعمال وأشدها إرهاقاً، مقابل تغذيتهم وإيوائهم ليس إلا، أما العناية بصحتهم والاهتمام بتثقيف عقولهم، وإعدادهم للحياة الصحيحة فلا يفكر فيه أحد).

هذه صورة العبيد المسترقين وحالتهم في الأمم والحضارات، مهانة وذل وعذاب مهين.

أذاعت قناة 24 الفرنسية حلقة لأحد برامجها تحت عنوان (أماكن محرجة يريد الفرنسيون نسيانها) فتخيل معي أيها القارئ الكريم، ما هي هذه الأماكن التي تؤرق ذاكرة الفرنسيين؟!

لقد كان منها حدائق صُممت للحيوان، ولكن الحيوان لم يسكنها، وإنما كان يقطنها أولئك البشر المساكين المقهورين الذين استجلبوهم أو خطفوهم من الدول التي استعمروها، فعلت ذلك فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية المستعمرة، كانت الحدائق تمثل وصمة عار وصفحة سوداء في التاريخ الأوروبي، فقد كانوا يقيمون ما يسمى بالمعارض الاستعمارية، وخدعوا هؤلاء المساكين الضعفاء، وأخبروهم أنهم سيمثلون فرنسا في المعارض الاستعمارية التي ستقام في هذه الحدائق، ولكن كانت المفاجأة أنهم كانوا محور العرض والبضاعة التي ستقدم للجمهور الزائر، حيث عرضوا خلف الأسوار الحديدية، على أنهم آكلي لحوم البشر، وكان بعضهم يجبرون على الوقوف أمام الزوار عراة في البرد القارص، حتى تسبب ذلك في موت المئات منهم، وبعد انتهاء هذه المعارض الاستعمارية، لم يكن في مقدور هؤلاء أن يعودوا إلى بلادهم بسلام، وكانت فرنسا تهدف من هذه المعارض، أن تستعرض قوتها الاستعمارية وتتيح الفرصة للشعب الفرنسي أن يشاهد صورة طبق الأصل للبلاد والأراضي التي استعمروها واحتلوها، حتى تظهر لشعبها تبريراً لاستعمار هذه البلدان، وأنها همجية بدائية متدنية المستوى.!

أما المفجع في الموضوع، فهو أن هذه المعارض كانت تحظى بإقبال كبير من الزوار، حيث كانوا يأتون إليها بمئات الألوف يومياً، وكان لكل بلد أوروبي مستعمر، قسم خاص وجناح بالمعرض يعرض فيه استهتاره بالبشر وإهانته للإنسانية.

ولا شك أن الأجيال الحديثة تشعر بالخزي من تراث أجدادهم، ومن هذه الصورة البشعة القاسية والانتهاكات التي ارتكبت بحق الإنسانية، ومع أصواتهم العالية التي تنادي بحقوق الإنسان اليوم، فإننا لايجب أن نغفل عن

هذه الجرائم التي ارتكبها المستعمرون في حق الشعوب المقهورة، التي استغلت بدائيتها وبساطتها لإشباع شهوتها ونهمتها، أما الحكومة الفرنسية، فكانت في حيرة من أمرها تجاه هذه الحديقة، فهي ترغب في تجديد أحد المباني الموجودة فيها ليكون متحفاً، وذلك كنوع من التخفيف من أثر الجريمة الإنسانية، فهي لا تستطيع تدمير كل مبانيها، لأن ذلك قد يعرضها لتهمة محاولة إخفاء ذلك الماضي الأسود، كما أن التجديد الكامل قد يرمز إلى الغاية في إحياء رمز الجبروت والتسلط.

لقد ورث استعماريو فرنسا العار لأحفادهم، فالكثير منهم اليوم يشعر بالحرج الشديد ويعتبرون هذه الحديقة الاستوائية في باريس، وصمة عارف في التاريخ الفرنسي كله، ومن أجل هذا ظلت مخفية لزمن كبير عن أعين الناس، حتى أعيد افتتاحها منذ أعوام، ولكنها ليست كالماضي في كثرة الزوار، فالشعب الفرنسي لا يشعر بالارتياح حينما يتواجد في هذه الحدائق المشؤومة التي تذكره بماض أليم يحاول الفرار منه!.

دموية أمريكا

ولا تتعجب حينما تعلم أن أمريكا ربة الحضارة والحرية والمدنية وحقوق الإنسان، هي هي أمريكا صاحبة أبشع تاريخ دموي عرفه الإنسان، فحينما نزلت العصابات البيض أرض أمريكا، وجدوا أراضيها خصبة فتية تحتاج إلى عشرات الملايين من الأيدي العاملة التي تعذر عليهم توفيرها من بني جنسهم، ولكنهم فكروا في الهنود الحمر، سكان البلاد الأصليين، لماذا لا يستعبدونهم ويسخرونهم في إحياء هذه الأرض، حتى يجنوا هم خيرها وثرواتها؟ حاولوا ترويضهم ولكنهم فشلوا، ولم يجدوا مناصًا من القضاء عليهم واستئصالهم، فنصبت المشانق، ووقعت المجازر والمذابح التي راح ضحيتها عشرات الملايين من الهنود الحمر، والتي قدرها بعض الباحثين بأكثر من 112 مليون هندي أحمر.

ولم يتورع المجرمون البيض الذين نزعت الرحمة من قلوبهم، أن يستخدموا كل الوسائل القذرة والمنحطة في القضاء على الهنود الحمر، فكانوا يسممون آبار المياه التي يشرب منها الهنود، وكانوا يحقنونهم بالفيروسات المميتة وجراثيم الأمراض الخبيثة كالطاعون والجدري ومسببات السرطان، وغير ذلك كثير من أفعال الإجرام.

وفي ظل هذه البشائع، يهرف أحد مؤرخيهم، في محاولة ساخرة يُقلل بها من حجم هذه الأعداد، فيقول: إنها لم تتجاوز المليون.! وقد وبخه أحدهم بقوله: فرضًا لو أنها لم تتجاوز المليون، فهل هذا الرقم هين في حياة الإنسان؟! هل من اليسير أن يباد مليونًا من البشر؟

يحكى المؤرخون الأوربيون المنصفون قصصًا يشيب لهولها الوِلدان، فقد كان الغزاة البيض يشعلون النار في أكواخ الهنود، ويقيمون الكمائن حولها، فإذا خرج الهنود من أكواخهم هاربين من الحريق، يحصد الرصاص رجالهم، بينما يتم القبض على الأطفال والنساء أحياء لاتخاذهم عبيدًا واغتصابهم جنسيًا أيضًا! وكتب أحد الهولنديين يقول :

(انتزع البيض بعض الأطفال الهنود الصغار من أحضان أمهاتهم، وقطعوهم إربًا أمام أعينهن، ثم ألقيت الأشلاء في النيران المشتعلة أو النهر! وربطوا أطفالا آخرين على ألواح من الخشب ثم ذبحوهم كالحيوانات أمام أعين الأمهات ! إنه منظر ينفطر له الحجر.! كما ألقوا ببعض الصغار في النهر، وعندما حاول الآباء والأمهات إنقاذهم، لم يسمح لهم الجنود بالوصول إلى شاطئ النهر، ودفعوا الجميع - صغارًا وكبارًا – بعيدًا عن الشاطئ، ليغرقوا جميعًا! والقليل جدًا من الهنود كان يمكنه الهرب، ولكن بعد أن يفقد يدًا أو قدمًا، أو يكون ممزق الأحشاء برصاص البيض، هكذا كان الكل؛ إما ممزق الأوصال، أو مضروبًا بآله حادة، أو مشوهًا بدرجة لا يمكن تصور أسوأ منها)

كما كان هناك قانون يقضي بأحقية الأمريكي في الحصول على مكافأة مجزية، إذا قدم لأي مغفر شرطة بالولايات المتحدة فروة رأس هندي أحمر، وخلال

عشرين عامًا فقط.. تم القضاء على هذا العرق، وبعضهم سيق بالقوة والسخرة للعمل في المزارع الكبيرة ومناجم الذهب، التي قيل: إن اكتشافها كان وبالًا على الهنود الحمر، وكانوا يستعبدون أطفالهم ونساءهم، يبيعون الأطفال ويخطفون الفتيات للخدمة والاغتصاب، لقد قضوا على الملايين من الهنود الحمر، فأي وبال ونكسة أصابت هذه القارة، وأي لعنة مؤسفة نزلت بهؤلاء المساكين؟

إنه تاريخ أمريكا التي حينما تقترب من مينائها في نيويورك، يطالعك منها أول ما يطالعك، تمثال الحرية الشهير، وكان الأجدى بهم لو صدقوا أنفسهم، أن يقيموا تمثالاً للقهر والجحيم، يذكرهم بضحاياهم من الهنود الحمر، وأن يجعلوا يومًا مشهوداً من كل عام، يسمونه يوم العار، يبكون فيه وينتحبون ندمًا وحسرة على ما اقترفه أجدادهم المتوحشون في حق عِرق بشري، لا جريرة له إلا أنه رفض استعبادهم.

وهي أمريكا ذاتها التي تقيم تمثالا لطاغية سفاح عدو للإنسانية.

وقد شاهدنا المظاهرات الأمريكية الأخيرة ضد العنصرية، والتي خرجت على أثر مقتل مواطن أسود يدعى جورج فلويد، على يد شرطي أمريكي، لم تتوقف عند الممارسات العنصرية من الشرطة والقادة السياسية في البلاد، بل امتدت لكل رموز العنصرية التاريخيين، حيث تم تدمير عدة تماثيل للمستكشف الإيطالي الشهير كريستوفر كولومبوس، مكتشف القارة الأمريكية، بسبب ضلوعه في عمليات الإبادة الجماعية ضد الهنود الحمر.

المتظاهرون الغاضبون قاموا بقطع رأس تمثال لكريستوفر كولومبوس في بوسطن، وتعرض آخر للتخريب في ميامي، فيما رمى ثالث في بحيرة بفيرجينيا، في إطار الحركة المناهضة للعنصرية التي تجتاح الولايات المتحدة مجددًا، بسبب جرائمه العنصرية، فما أبرز جرائم مكتشف "العالم الجديد" ضد الهنود الحمر.

كان كولومبوس قد وصل إلى الجزر الكاريبية عبر المحيط الأطلسي في 12 أكتوبر 1492م لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية، كان في رحلته الثانية عام 1498 م.

كما عاش الإسبان في الأرض فسادا، نهبوا المعابد، دمروا الحضارة (حضارة الآزتيك والإنكا والمايا)، وأجبروا السكان المحليين على العمل بالسخرة في مناجم الذهب والفضة في ظروف قاسية، دفعت الكثير منهم إلى الانتحار خلاصا من العذاب، خلال تلك الفترة تم إبادة ملايين الهنود الحمر نتيجة قسوة ظروف العمل في المناجم، تشير التقديرات إلى أن واحدا فقط، كان يخرج حيا من بين كل 8 أشخاص عملوا فى المناجم.

المستكشف الإيطالي كريستوفر كولومبوس، مكتشف القارة الأمريكية، ارتكبت جرائم ضد الإنسانية، وصنفه الباحثون بسببه بأنه أحد أبرز رموز العنصرية في التاريخ، حيث أنه دخل أمريكا حرفياً على أشلاء ودماء أهلها، وسجلت كتب التاريخ فظائع ارتكبها ومن عاونه في رحلته الاستكشافية.

فحين دخل الإسبان إلى "العالم الجديد" للمرة الأولى، كان الهنود يخرجون لاستقبالهم عند مداخل المعابد ويشعلون ناراً ويلقون فيها الذهب، لأنهم كانوا يظنون أن المسيحيين القادمين إلى أراضيهم هم أبناء الشمس، لكن أبناء الشمس أولئك، لم يحتفوا بالهنود بالطريقة ذاتها، فقد سلبوا أراضيهم وذهبهم، وحينما حاول الهنود المقاومة، أخضعهم جنود كولومبوس بقوة السلاح، وقتلوا واغتصبوا آلافاً منهم.

كان على كل هندي تجاوز عمره الـ14عاماً، جمع كمية معينة من الذهب للإسبان كل 3 أشهر، وإن لم يفعل كان عليه مواجهة العذاب الذى يصل إلى بتر الأيادي وتعليقها لتتدلى من أعناقهم، ثم الموت بتركهم ينزفون حتى الرمق الأخير، وقد قتل بهذه الطريقة أكثر من 10 آلاف شخص من الهنود الحمر، وفقاً لما استعرضه كتاب الكاتب السويدي لورنس بيرجرين، الذى بحث السيرة الذاتية لكولومبوس.

فظاعة جنود كريستوفر في أمريكا في معاملتهم لسكان القارة الأصليين، لم يقف عن حد الجشع فقط، بل أنهم نبشوا قبور الموتى، وانتزعوا الذهب والزمرد من بطون الموتى؛ إذ تقضى الطقوس الدينية الخاصة بالهنود الحمر بدفنه في بطون الموتى، كما سن كولومبوس سنته السيئة في جنوده، سواء في استعباد الهنود للعمل بلا مقابل، أو فى أسر السبايا واغتصابهم.

ففي رحلة كولومبوس الثانية، أهدى امرأة كاريبية لطاقم السفينة كي يغتصبها، وأصبح هذا الطقس جزءاً من كل إغارة جديدة، حيث يختطف الإسبان النساء والفتيات ويغتصبونهن، أو يبيعونهن للاسترقاق الجنسي، وعندما وطئت قدماه أراضي القارة الأمريكية، أمر بالقبض على 6 هنود ليصبحوا خدمه الشخصي، ورأى أنهم "سيكونون خدماً جيدين طوال مدة إقامته"، وبدأ بعدها جنوده في استرقاق بعض الهنود وبيعهم كعبيد.

أما في حال تمرد أحد الهنود على هذه المعاملة غير الآدمية، كان الإسبان يلجؤون إلى الكلاب الشرسة، لتمزيق المتمرد أمام الباقين، ثم تترك الجثث المتمزقة في الميدان حتى تتفسخ، ليعلم الجميع ما هي عاقبة التمرد، فضلاً عن عقوبات أخرى تقضى بتقطيع الآذان والرؤوس.

هذه العنصرية لم يتحملها بعض الهنود فبدأوا في تدمير مخازن الخبز، فلا يأكل منها المستعمرون لأراضيهم ولا حتى هم أنفسهم، فيما لجأ آخرون للانتحار الفردي أو الجماعي كسبيل للخلاص من هذا العذاب، إذ قتل البعض نفسه بالقفز من المنحدرات العالية، فيما سمم بعضهم الآخر نفسه بالأعشاب، وآخرون جوعوا أنفسهم حتى الموت، ووصلت أعداد المنتحرين إلى 50 ألفاً.

القارة المنكوبة

وربما تأصَّلت العداوة بين الهنود الحمر، وبين المحتلين الأوروبيين فحدث ما حدث من إبادة منكرة.. فلعلهم واجهوا مقاومة شديدة فدافعوا عن أنفسهم.. لكن ما هي أعذارهم فيما فعلوه من جرائم في حق الذنوج الأفارقة؟..إن المستعمرين

القتلة اكتشفوا بعد القضاء على الهنود الحمر أن أمريكا لابد لها من عبيد يستصلحون أراضيها، فاتجهت أنظارهم إلى الزنوج الأفارقة، فأجسادهم قوية وبنيتهم فتية، تستطيع تحمل مشقة العمل والأجواء القاسية، ومن ثم تكالب المسعورون عليهم يأسرونهم بلا رحمة، وشرعت سفنهم على سواحل أفريقيا تحمل لصوص البشر ..ومن قبلهم تحمل الخراب والموت والضياع والقهر والاستعباد لأبناء القارة المسكينة.!

تقول المصادر الأوروبية ذاتها: أنه وخلال خمسين عامًا فقط، تم خطف وترحيل ما بين خمسة عشر إلى أربعين مليونًا من الأفارقة، وتم بيعهم كعبيد في أسواق أمريكا وأوروبا، و أن من بين كل عشرة أفارقة كان يتم أسر واحد فقط واستعباده، بينما يلقى التسعة الآخرون مصرعهم إما بالرصاص، أو التجويع والعطش، أو الانتحار وكثير منهم كان يلقى حتفه اختناقًا بسبب تكديس المئات منهم في أقبية السفن.

وكان مصير الأفارقة مشابها لمصير الهنود الحمر في عدد الضحايا.. إلا أنهم كانوا أوفر منهم حظًا، فالهنود أُبيدوا على مدار عشرين سنة، أما الأفارقة فقُتل منهم ما لا يقل عن مائة مليون في خمسين سنة.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية: (أن الإنجليز كانوا يشعلون النيران في الأحراش والأشجار المحيطة بأكواخ الأفارقة، فيضطر هؤلاء المساكين إلى الخروج من مساكنهم هربًا من النيران، فيقتلهم القناصة ، ويأسرون الأطفال والنساء، ويرحلونهم إلى مراكز تجميع العبيد على الساحل الغربي الإفريقي تمهيدًا لنقلهم بالسفن في رحلة بلا عودة.!

إن القوم أسرفوا في سفك الدماء بكل حقد وغل، وكأنهم يحاربون وحوشاً مفترسة أو كائنات عدوانية نزلت عليهم من الفضاء، تريد القضاء على بني الإنسان، إن أحدنا لا يطيق أن يرى بعينه دجاجة تذبح، فما بال هؤلاء يتفننون في سلخ البشر وذبحهم؟!كيف كانت أشكالهم وكيف كانت طبائعهم؟!

إننا بلا شك أمام أناس لا دين لهم ولا ضمير، أما قلوبهم فلا تعرف رحمة أو شفقة، وكأنما قدت من جحيم ملعون، ولم يكن من المقرر سلب حياة المستضعفين وحريتهم فقط، وإنما سلخهم من أديانهم ومعتقداتهم، فقد كان يصاحب كل سفينة قسيس يقوم بتنصير العبيد، وهكذا يسلبون الضحايا حريتهم ودينهم!

أما القوانين التي كانت تحكم حياة هؤلاء الزنوج في أمريكا، فكانت في غاية الشدة والقسوة، وكان مقتضى القانون الأسود: أن الحر إذا تزوج بأمة صار غير جدير بأن يشغل وظيفة في المستعمرات، وكانت القوانين تصرح بأن للسيد كل حق على عبده، حتى حق الاستحياء والقتل.

و(كان يجوز للمالك رهن عبده وإجارته والمقامرة عليه وبيعه كأنه بهيمة، وكان لا يحق للأسود أن يخرج من الحقل ويطوف بشوارع المدن إلا بتصريح قانوني، ولكن إذا اجتمع في شارع واحد أكثر من سبعة من الأرقاء ولو بتصريح قانوني كان لأي أبيض إلقاء القبض عليهم وجلدهم)

هذه لمحة يسيرة من تاريخ الغرب و أمريكا رائدة الحضارة والحرية وحقوق الإنسان.. لمحة من تاريخهم القديم الأليم، وما تاريخها الحديث ببعيد عما ذكرنا، فالجرائم تتوالى والعدوان يتصاعد، والشعوب المستضعفة تشهد على أيديهم ويلات وآلام.

أما فرنسا وما أدراك ما فرنسا فقد طالعتنا الأنباء باعتراف الرئيس الفرنسي (فرانسوا أولاند)، أثناء زيارته للجزائر 2014م، بأن استعمار فرنسا للجزائر كان وحشياً وظالما، وقال أمام البرلمان الجزائري: أعترف هنا بالمعاناة التي تسبب فيها الاستعمار للشعب الجزائري، ذاكرا أحداث (سطيف وقالمة وخراطة) التي تبقى راسخة في ذاكرة الجزائريين وضميرهم، وأضاف: على مدى 132 عاماً تعرضت الجزائر لنظام وحشي وظالم هو الاستعمار، وأعترف بالمعاناة التي سببها.

لقد دمرت فرنسا في مايو سنة 1945 إحدى وأربعين قرية في الجزائر، على من فيها من الأطفال والنساء، والشيوخ والشباب حسب ما أفادت المضبطة الرسمية لمجلس النواب الفرنسي.

وكتبت صحيفة كومبا الفرنسية عن هذه المذبحة تقول: في إحدى المدن بينما طفل عربي لا يتجاوز العاشرة، يقطف زهورا بالحديقة العمومية، إذا بيوزباشى يطلق عليه عيارا ناريا، فيرديه صريعا.

قال مندوب جريدة ليبرتى بعد المذبحة ما يأتى: (إننا الآن بهليوبوليس قرب مدينة قالمة، ولقد مضى على الجثث الملقاة على قارعة الطريق أكثر من خمسة أيام، دون أن يهتم أولوا الأمر بدفنها وذلك تفننا في إلقاء الرعب في قلوب الوطنيين، الذين لم يزدهم هذا العمل إلا كراهية لنا وبغضا، لقد رأينا في أحد المناظر رضيعاً ملوثا بالدماء، يبحث عن ثدي أمه المقطوعة الرأس، دون أن يهتدى المسكين إلى الثدي ، ودون أن تستجيب الفريسة لصراخ ابنها.!)

ولعل العالم الطبيعي (كاترفاج) قد وضع يده على ما نريد أن يعلمه الغرب دوماً ويتذكره، خاصة في نظرته للإسلام وشعوبه، ومحاولات الإفك التي يروج لها في إعلامه من وسم المسلمين بالدموية والإرهاب ، يقول (كاترفاج): إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوروبي أن يلوم أكثر الشعوب توحشاً من انتهاك حياة الإنسان، فليراجع ذلك العرق تاريخه، وليتذكروا الحروب والوقائع التي كتبها بحروف من دم، وليتذكر ما صنع بإخوانه المتأخرين عنه وما أسفرت عنه خطواته من الدمار !!

وليتذكر اصطياده للإنسان كما يصطاد الوحوش الضارية، وليتذكر استئصاله أمما بأسرها ليفسح لمستعمريه المجال، وليعترف بأن حياة الإنسان إذا كانت مقدسة، فإنه لم يرو أن شعباً انتهك حرمتها بفظاعة مثله.

وبعد كل هذه المهازل يقولون: إن الإسلام دين الإرهاب والمسلمين دمويون.! والناظر لهذه الدعاوى بعد ما كتبنا من تاريخهم الأسود، لا يسعه إلا أن يضحك ساخراً، مما يرى أمامه من الهطل أو الجنون الذي يلغون في.

سهم الكلمة

عجيب أمر الإنسان، فكلمة واحدة تخرج من أي فم، يمكن أن تؤثر على حياته وتغير مسار دنياه، قد تحول الإنسان إلى عالم فنان، وقد تضعه في طريق الهاوية والإجرام.. فهي يمكن بكل سهولة أن ترفعه للذرى والعلى، ويمكن لها كذلك أن تهوي به للقاع والضياع.

كان أحد الشباب يومًا قد انتهى به الحال للوقوف خلف قضبان السجن أكثر من مرة، بعد مجموعة من المخالفات التي يُعاقب عليها القانون، وبسجل حافل من القضايا في سنوات عمره التي لم تتجاوز العقد الثالث، وحين قام القائمون على السجن بإجراء البحث الاجتماعي لحالته، قال بعد سرد مجموعة من المواقف التي أثرت في حياته: إنه يُحمل مسؤولية كل ما هو فيه من ضياع إلى والده، الذي كان لا يتوانى على أن يردد عليه منذ الصغر كلمة واحدة فقط وهي "الفاشل".

فكان يرددها يومياً خلال كل سنوات طفولته وشبابه، إلى أن انتهى به الأمر إلى هذا المستقبل المأساوي.

" قد تكون هذه الكلمة سوء تقدير من الأب، وهي دون شك بلا قصد من أب اعتقد بأنه سوف يحفز ابنه على النجاح عندما ينعته بالفاشل، لكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً، فأخذت هذه الكلمة تأثيرها السلبي الذي وصل به لهذا الأمر.

هناك من الناس من يجهل ماذا يمكن أن تفعل بنا الكلمة، ولا تأثيرها الذي قد يفعل ما لا يتوقعونه؟ لأنها حين تكون حادة تصبح كالسكين، لديها القدرة أن تنغرز في الأعماق، وتجرح بقوة، وتتسبب في نزيف من المعاناة والكآبة، كما

أنها قد تترك لنا بصمة داكنة في الذاكرة، يصعب أن تزول بمرور الزمن، ولاشك أن الكلمة الطيبة لديها القدرة العظيمة في سعادة إنسان، وانتشاله من أصعب حالات اليأس.

لنتبه إلى كلمة نطلقها كرصاصة طائشة، تستقر في قلب أحدهم فتقتل معها كل المشاعر الطيبة، وتنهي معها أعظم العلاقات"

ويأتي الإسلام ونبي الإسلام، ليكون الدين الأعظم، والنبي الأوحد، الذي نبه لخطورة الكلمة على المشاعر، فحذر ونوه وأمر ونهى عن إطلاقها على أي لسان يؤذي مشاعر الناس ويهتك أحاسيسهم.

يقول الله تعالى: "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن"

وقال تعالى مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك".

وقال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ»، وقال: «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ»، وقال: «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ»، وقيل في تفسيرها: (إذا تخيلنا شجرة تين مثلًا، أخذنا حبة تين، ثم نعد كم بذرة فيها؟ ونتخيل أن كل بذرة ستصبح شجرة، وكل شجرة تحمل عشرات ألوف هذه الثمار، وكل ثمرة فيها عشرات ألوف هذه البذور، معنى هذا من بذرة واحدة يمكن أن تُشكل غابة، فالكلمة الطيبة تعمل سلسلة انفجارية، تجد مجتمعًا بأكمله يهتدى بالكلمة الطيبة أو العكس).

كما تدخل الكلمة الطيبة من باب جبر الخواطر التي قدمها الله على الصدقات: «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ»، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما تحدثه الكلمة الطيبة على النفوس، فقد يظل الإنسان يومًا بأكمله سعيد بكلمة، والعكس كلمة قد تقلب يومه رأسًا على عقب!

قال صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده."

و قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".

ومن وصاياه أيضاً: " لا تقل بلسانك إلا معروفا"

وقال أيضا: «الكلمة الطيبة صدقة»

فالكلمة الطيبة كما قيل: كطائر جميل حين تطلق سراحه من لسانك سيغرد في صدور الآخرين، ولتكن أخلاقنا باقة من زهور الحياة نهديها لمن حولنا عطرها الطيبة ولونها نقاء قلوبنا ورحيقها الابتسامة.

فإما أن تنطق بالحق والخير، وإلا فلتصمت حتى لا تؤذي الناس بلسانك، والكلمة الطيبة تكون وقاية لصاحبها من النار، والمثل الدارج على ألسنة الناس "إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب" وهو مثل معبر عن أثر الكلم على المشاعر.

إن الكلمة حينما تكون حادة، تصبح كالسكين لديها القدرة على أن تصل إلى الأعماق وتجرح بقوة وتتسبب في نزيف مستمر من المعاناة والكآبة.

وقد قيل: "الكلمة ليست مجرد موجات صوتية نطلقها، ولا مجموعة أحرف نرسمها على الورق، إنها أعظم من ذلك، فهي تبث مشاعر وصورا في العقل وتمثل أخلاق وأدب قائلها؛ فالكلمات هي شرح لك ولشخصيتك، ومن القلب الصالح تخرج كلمات البناء، ومن القلب الشرير تخرج الكلمات للهدم.. الكلمات لها قدرة على تحويل الأعداء إلى أصدقاء، ولها قدرة على العكس أيضا، ولذلك فإن دراسة مدى تأثير الكلمات على عقولنا وانفعالاتنا أمر مهم جدا، لأننا نتواصل مع الناس بشكل مستمر: نقرأ ونكتب ونسمع ونتحدث."

ويؤكد علماء النفس أن الكلمات الجارحة سميت جارحة لأنها تسبب جروحا حقيقية في الدماغ وتميت عدة خلايا أو تتلف عملها، مسببة نوعا من العطل في التفكير، ولهذا يعاني الشخص المجروح آلاما نفسية وشعورا سلبيا وإحباطا،

ليس هذا فقط، بل كثيرا ما يتحول الشخص المجروح إلى شخص فاشل غير منتج.

لهذا فإن الكلمات الحلوة الجميلة لها تأثير السحر، ليس على المستوى النفسي والمعنوي فقط، وإنما على المستوى الصحي والجسمي كذلك، فالكلمة الطيبة تؤثر على الروح المعنوية للإنسان، فتجعله منشرح الصدر، فرحا سمحا مبتهجا قادرا على مصالحة نفسه ومصالحة الآخرين، لكن بشرط أن تكون تلك الكلمة، نابعة من القلب وليست مجرد مجاملة، أو كلمات جوفاء فقط.

الكلمة من أقوى أسلحة العصر، ولن يستطيع العلم الحديث – مهما تطور- اختراع مهدئ للأعصاب أفضل من الكلمة اللطيفة التي تقال في اللحظة المناسبة"

فانتبهوا من الكلام الذى يصدر منكم بقصد أو بدون قصد، فهناك عبادة تسمى جبر الخواطر، فالعطاء ليس ماديًا فقط يتمثل في المال، بل العطاء الأعظم المعنوي الذى يمتد أثره مع الزمن كالكلمة الطيبة، فتمعن جيدًا واختار كلماتك قبل أن تتلفظ بها، فالكلمة كالرصاصة قد تقتل أو تكون كالدواء الذى يتسبب فى الشفاء وإعادة الحياة للبعض! والكلمة إذا خرجت لن تستطيع إعادتها مرة أخري! وإلا ستكون أشبه بإعطاء دواء لمريض ولكن بعد موته ومفارقته للحياة!

مقولة يتلفظها الكثير «هو الكلام بفلوس»، ولكن لو علم البعض أن الكلام أثمن من الفلوس، فالكلام يؤثر على النفس والروح التي هي أثمن وأغلى من أي مال!

الكثير يوعد بالكلام ولا يعلم أثر الوعود على صاحبها؛ فقد يبنى شخص على كلمة منك آمالًا وأحلامًا وطموحات، وأنت تفوهت بها من باب الكلام فقط! فهناك فرق بين الكلام المجاملة واللسان الحلو، وهو الكلمة الطيبة التي تجبر

الخواطر، وفارق شاسع بينها وبين الكلام الذى يحمل وعودًا، فهنا قد يكون عدم الوفاء بالوعود، كسرًا للخواطر والنفس والروح!

أقوال رددها الحكماء

الكلمة الطيبة تساوي الكثير على الرغم من أنها لا تكلف إلا القليل.

الكلمة الطيبة ليست سهماً، لكنها تخرق القلب.

إنه لمن الضروري، والعاجل أن نعيد الطيبة إلى العلاقة بين البشر.

خير علاج للنفس هو الكلمة الطيبة.

الكلمة الطيبة تضيف عملاً صالحاً لمن يقولها في كل وقت وتفتح له أبواب الخير وتغلق عنه أبواب الشر.

الكلمة الطيبة هي هداية الله وفضله على عباده الصالحين.

الإنسان المؤمن عليه أن يجعل فمه عاطراً لا يخرج منه إلا ما هو طيب من الكلام.

الجمال بلا وجه طيب وكلمات طيبة، لا يساوي شيئاً.

يكون المرء طيباً إذا جعل الآخرين أفضل بكلامه.

لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسيطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الكثير.

ظمأ القلب لا تطفئه قطرة ماء، بل كلمة طيبة.

جارة طيبة في قلبها وكلامها أفضل من أخت بعيدة.

إذا لم يكن لديك شيء تعطيه للآخرين، فتصدق بالكلمة الطيبة، والابتسامة الصادقة.

الكلمة الطيبة هي أجمل الهدايا وأقلها سعراً.

الكلمة الطيبة ما هي إلا فعل بسيط يتصدر عنك أيها الإنسان، غير مكلف ولا مجهد لك، وغير ذلك فإنك سوف تؤجر عليه من رب العالمين.

الكلمة الطيبة لها مفعول السحر قامت بهدي الكثير من البشر للخير وعبادة الله.

الكلمات الطيبة تطرب الأذن وتطمئن القلوب وتجعل الناس أجمعين يتوددون لقائلها ويتقربون منه.

الكلمة الطيبة هي التي عند سماعنا إياها تسر قلوبنا، وتؤلفها وتحدث أثراً طيباً لا مثيل له في النفوس.

بالكلمة الطيبة نحتل قلوباً قد تحجرت مع مر السنين، ونخترق أوعيتها المسدودة، نفتح أبواب الخير. كما نمسح غبار الحقد والأنانية.

بالكلمة الطيبة تفتح أزهار الربيع في فصول الألم والخريف، ولا تعرف معنى للمستحيل.

الكلمة الطيبة بطاقه للمرور في قلوب الناس، الكلمة الطيبة لها أثرها الطيب في النفوس.

إن من القلوب مزارع فازرع فيها الكلمة الطيبة فإن لم تنبت كلها ينبت بعضها.

الكلام هو معجزة الإنسان، صحيح أن الصمت حكمة، لكن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

الطيبة الحقيقية للإنسان لا يمكن أن تظهر في كل نقائها وحريتها. إلا حيال هؤلاء الذين لا ينطقون إلا كلاما طيباً.

إنّ الكلمات الطيبة تخلق الأصدقاء الطيبين.

الكلمة الطيبة صدقة لا تكلفنا الكثير فهي توازي الصدقة بالأموال.

من الممكن أن تكون هذه الكلمة الطيبة سبب في هداية شخص ما، فهي من الأعمال الصالحة، التي نتوسل بها إلى الله جل علاه وقد تكون من أحد الأسباب في دخولنا الجنة.

كما يطفئ الماء النار علينا بالكلمة الطيبة والبسمة الحلوة أن نطفئ شر الغضب.

لقمان الحكيم: يقول إن من الكلام ما هو أشد من الحجر وأنفذ من وخز الإبر وأمر من الصبر وأحر من الجمر وإن من القلوب مزارع فازرع فيها الكلمة الطيبة فإن لم تنبت كلها ينبت بعضها.

الكلمة الطيبة قد تفعل في الإنسان ما لم تفعله الأدوية القوية فهي حياة خالدة لا تفنى بموت قائلها.

الكلمة الطيبة ليست سهمًا لكنها تخرق القلب.

الكلمة الطيبة تساوي الكثير على الرغم من أنها لا تكلف إلا القليل

الكلمة تكشف الحقيقة ولكنها يمكن أن توظف يومًا لإخفائها.

ضربة الكلمة أقوى من ضربة السيف.

الكلمة كالسحر منها تهدي شخص ومنها تجعل شخص يضل الطريق.

عندما تسمع كلام طيب تشعر بأن قد جاء الربيع بأزهاره العطرة الكلمة هي من تداوي الجرح وتطيب الألم.

عندما تسمع كلمة طيبة من أحد فتشعر بأن قلبك يرقص من شدة الفرح.

الكلمة الطيبة كالموسيقى من يعتاد على سماعها ومن يتعود على ذكرها، يشعر بأن الدنيا قد ارتضت عنه.

الكلمة الطيبة لا تحتاج إلى مجهود تبذله لكي تخرجها فهي من أعظم الأعمال الغير متعبه.

إذا تعودت على قول الكلمة الطيبة، ستجد ما حولك يحبك ستجد مكانك في كل موضع من موضع أجسامهم ستجد نفسك في قلوبهم وعقولهم وخواطرهم.

إذا أردت أن تربي ابنائك على الخير اسعى دائمًا إلى قول لهم كلمة طيبة، فالكلمة الطيبة تربي أجيال وتهدم أجيال.

دائمًا ندعو الله بأن يبعد عنا من هم يتكلمون عنا بكلام قبيح في ظهورنا، ويقرب منا يذكرنا بالخير في غيبتنا بالكلمة الطيبة.

إذا أردت أن تتصدق كل يوم دون أن تتكلف نقوداً عليك بالكلمة الطيبة فهي خير مثال للصدق.

بر والديك بالكلمة الطيبة، بر أقاربك بالكلمة الطيبة، إذا أردت أن يدعو لك الناس في مماتك دائمًا قل كلمة طيبة.

قد تكون الكلمة الطيبة أغلى من أي هدية الكلمة.

الطيبة ممكن أن تكون السبب في رجوع شخص إلى الله وتوبته بعد معصية.

هناك من يستصعب الكلمة الطيبة الكلمة الطيبة ليس الكل يقدر على قولها فهي تحتاج إلى تدريب شديد.

قولك للكلام الطيب دليل على سماحة قلبك وطيبته.

إذا أردت أن تُسعد حزين قل له كلمة طيبة تجبر قلبه.

جدول المحتويات

مقدمة 5
الشعور بالآخرين 8
حينما يقسو القلب ! 10
الفضيلة الغائبة 12
إنسانية عالية 16
أنانية البشر 19
طفولة شاعرة 24
أمة حساسة 28
رسول الإحساس 31
الإنسانية فوق كل شيء 34
حلوى الشيخ 37
العبادة إحساس 39
الإحساس عمل 42
قلوب شاعرة 46
ما أروعك يا عمر 49
ملائكة الرحمة 51
نية مأجورة 54
أخوة صادقة 58
الإحساس ليس مصمصة شفاه 61
على درب المشاعر 63
جراحات في الحديقة 66
يشعر بإخوانه رغم محنته 70
الجبار.. لم يكن جبارًا ! 72
لا تنس أبدًا أنك إنسان 76
الصراحة والوقاحة 81
نوبل في الانسانية 84
سؤال يحيرني؟! 86
احتكار الإنسانية 90
مجرمون عبر الزمان 94
وصمة عار 97

دموية أمريكا 100
القارة المنكوبة 104
سهم الكلمة 108
أقوال رددها الحكماء 112

وخز المشاعر

حاتم إبراهيم سلامة

ما قيمة المرء حينما يتجرد من الإحساس والمشاعر فلا يشعر بمن حوله.. لا يبالي لآلامهم أو يئن لآهاتهم أو يجزع للأوائهم؛ أو يضنيه دمع جفونهم، ويسوؤه ضنك حياتهم. ما قيمة هذا الإنسان الذي يعيش في الحياة لا يُبصر أحوال الناس، ما الذي يميزه عن تلك الحجارة الصماء الباردة، التي لا روح فيها ولا وجدان. علمنا الإسلام أن نعيش لغيرنا، ونشعر بالناس من حولنا، ونبذل الخير ونسعى لتقديمه.. والحرص على كل ما يسعد البشر، ويمنحهم الفرح والسرور. إنه الإحساس يا أخي في حياة المسلم تلك القيمة التي يغرسها الإسلام في أتباعه، فيتحركون بها في حياتهم كل مظاهر حياتك وشؤونها، حتى يوافق فطرة الإنسان التي خلق عليها، فهذه القيمة مما ميز الله بها البشر، فإذا تنكر لها أحدهم فهو انحراف عن مسار الإنسانية إلى الحيوانية والجمادية. فقيمتك في إحساسك، وميزتك في شعورك، ويوم أن تتجرد من هذه السمة، فلا معنى فيك للإنسانية أو الآدمية، فإنسان بلا إحساس وبلا شعور، هو آفة على هذه الأرض. كل هذا لأنه ليس حساس، وقلبه مجرد من الشعور، ولا تعرف الرحمة إليه طريقاً.

ISBN 979-8-21-568393-4

98215 >

غلافك عندنا
Samar Alhashem

دار مبدع للنشر الإلكتروني